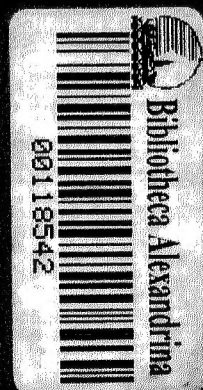


مخالف سرداء

أماظة



أسرار السياسة



للاستاذ فكري ابازة

صحائف سهو — وداء

في تاريخ الانجائز في بلادنا



من عهد عرابي باشا

إلى وقتنا هذا

التي هيئة الامانة العامة، القاهرة، مصر

رقم الكتاب	٥٠٠
رقم المجلد	١
رقم الصفح	١٠٠

التمن ه صاغ

الاهداء

اعترافاً بالجميل . وتقديراً للفضل . وإقراراً بالمعروف . نهدي هذا
 الكتاب الى مصر العزيزة . الى نيلها وسودانها وملحقاتها . الى الشهداء
 والضحايا الذين تركب من عظامهم ترى هذا الوطن طبقات فوق طبقات :
 طالبة إنصافها بانقاذها من رجس الأجنبي . وتطهيرها من دنس الفاسد .
 الى المتقين الذين هم بحق الوطن يؤمنون . وعدوده وفاق الطبيعة وسلطان
 التاريخ هم يقيمون . وفي هذه السبيل بما رزقهم الله وبما يشتهون وقاية لهذا
 الحق واحتفاظاً به مصوناً رايها نامياً ينفقون . والذين يسعون بما شرعه الاله
 والقرون والمدائن والقرى المصالحون من عطاء . وبالتجارب القومية هم
 يوقنون . وبحساب ربهم يثقون . وبالأخرة يصدقون .

وترحيباً وتكريماً . نهديه الى قوم غنوا عن أمر ربهم . وخانوا عهد
 وطنهم . وقالوا في ثمال واستكبار . وفي غير استحياء ولا استعبار . إننا
 بالذي آمنتم به كافرون . ولما أخذتم الرجفة . وأصبحوها في ديارهم جائعين .
 وجاءتهم البينة . فكشفت ما ران على قلوبهم . وأضحوها على ما فعلوا نادمين .
 تابوا الى الله . وآنابوا الى الوطن .

وهدي ورحمة وذكري . نهديه في النهاية الى الذين أشركوا بالوطن .
 وزين لهم الشيطان قتل أمة آمنة مطمئنة عزلاء ليردوهم . والذين يجرؤون الحق
 من بعد مواضعه . عسى أن يزي الله قلوبهم . ويقيمهم في الدنيا حزيماً . وفي

الآخرة عذاباً عظيماً . هـ إن الذين اشكروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً .
 ولهم عذاب أليم . ولا يحسبن الذين كفروا أنما على هم خيراً لأنفسهم . إنما
 على هم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين . ما كان الله لينذر المؤمنين على ما أنتم
 عليه حتى يميز الخبيث من الطيب . وما كان الله ليطلعكم على الغيب . ولكن
 الله يجتبي من رسله من يشاء . فآمنوا بالله ورسوله . وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم
 أجر عظيم هـ

أحمد وفتق

تنبيه

وضعنا من هذه المذكرات حتى الآن ثلاثة آلاف صحيفة من القلم الكبير .
 ولقد كنا اعترضنا أن نصدرها في أجزاء كبيرة الحجم . ولكن إرتأينا
 مراعاة للظروف الحاضرة وتمكيناً للقراء من الاطلاع أن نذيعها أجزاء
 عديدة في هذا الحجم الصغير



مناسبة الاصدار

ليس لي أن أنهر ذكرى معينة، أو أتحين واقعة خاصة لأصدار كتابي « في سبيل الوطن ». مادام عنوانه قد انطوى على معنى الجهاد . وما دامت صفحاته أشعة وهاجة ترسلها شموس أشرقت في تاريخ مجد القوميات . وما دام الاحتلال البريطاني لا يزال في وادي النيل جائعاً .

إن كل يوم من أيام الاحتلال مناسب لأصدار هذا الكتاب . ففي كل يوم ذكرى استشهاد . بل في كل يوم تستشهد مصر مع غروب الشمس لتبعث حية مع شروقة . وإذا كان الانتحار الأدبي قد حل محل الاستشهاد اليومي في السنوات العشر الأخيرة . قضاء لأخط الأمانى . وتحقيقاً لأبغض المصالح في أيام الحزن والكوارث العامة . فإن في هذا الانتحار الأدبي معنى الاستشهاد مادام فيه شق الطريق لتطهير يفضى إلى تعرف حقيقة الرجال الذين يستطيعون في النهاية وبعد الصبر الجليل على الأذى والنوازل أن يعملوا الانقاذ العام بتضحية مصالحهم وصحتهم وذواتهم وأموالهم والخمرات . غير مستبقين إلا مهمة الوطن ومهمتهم بالتبعية للسمعة العامة .

فأصدار الكتاب هو إذن بمناسبة الاستشهاد اليومي العام في سبيل المصلحة القومية

ولما كانت هذه هي المناسبة . فقد حق علينا أن نحيي شهداءنا في شخص سيد الشهداء . وأمام الزعماء الأطهار « مصطفى كامل باشا » . قائد النهضة المصرية الزهية التي لم تعرف تراجعاً عن المبدأ . ولا زكناً في العهد . ولا زكولاً عن اليقين . ولا ادباراً عن اليقين . ولا تسامحاً في عقيدة أو دين . ولا زعزعة في رأي . ولا تواني في هدى . شرع مجاهدة الانجليز فلم يلوأوه عن صراطه . وسن مناهضتهم فلم يحد عن خطه واشراطه . فلقد ناصبهم العداء

هنا نزل الميدان يتولى قيادة مجالدهم. حتى يحيط جسمه ساحة القبر. وصعد روحه إلى ديار الحق.

وفي هذا اليوم يخلق بنا أيضا أن نخفي من حول مصطفى هالة الشهداء. الذين أحاطوا مبعث الإيمان الوطني أطارا انتظم لطيف سليم باشا. وعلى نفري بك. ومصطفى نجيب بك. وعمر لطفى بك. وحارس باشا. وحسن رضوان باشا. ومحمود نيس بك. وأسماء بل الشيمى بك. ومحمد فريد بك. وعبد اللطيف الصوفاني بك. ومحمد ~~الشيخ~~ بك. وإسماعيل حافظ وأحمد لطفى بك. ومنصور رفعت. وعلى فهمى كامل بك. ومحمود ناشد بك وأمين الراقى بك. وعبد العزيز جاويش بك وأحمد وجدى. وإسماعيل لبيب بك. وأحمد فؤاد وغيرهم من الجنود المجاهدين الذين تألقوا فى سبيل التضحية ومموا انقاذا للوطن وحقوق الوطن. أن الوطنيين الأبرار ليدركون فى كل يوم وهم يستشفون هذه الخيالات النورانية مدى تلك السماء الشاسعة الأغوار تغلغلتم صمدها فى أعماق الانسانية وأصطلح العالم على أن يسميها الروح الوطنية.

ففى كل يوم يرى المخلصون فى كبد القبة الزرقاء نورا تركز ليرسل الينا إشعة قوية لا تقربها يد. وإنما تحسها. ولا يمسه جسد. ولكنه يشعر بها. ولا يدركها عقل. وأن مثلث أمنه. ويقصر دون تعريفها النقل. وأن تجسدت قدومه. ذلك أنها تنفذ إلى القاب مباشرة. لتخاطبه بلغة العاطفة. وتخاطره فى طهجة الاحساس. أنها أشعة فى الداخل ساطعة. وفى الخارج لامعة. يراها الوجدان دائما فى ريعان الشباب. إلا تبلى ولا تتجدد. غصة الالهة. ناعمة. خلا ملسها من التجمد. إسحارة كانهاس الاحباب. آيتها الانتشار والتمدد. ثقيل دائما ولا تدبر. وإذا انكشفت فلتستجيم حتى تكرر. دوز. أن تتراجع أو تفر. أبدا متويزة لاداء الواجب فى دأب.

هذه آية «مصطفى كامل» والذين تتأوا حوله رصائع في محيط الشهداء. إنها معجزة هذا العصر الذي أمسى فيه للذيلة جلال. وللنقيصة تقدير واجلال. إنها الطير في وكره. يفيض حنانا ورحمة وعطفا على الابناء المخلصين. والعصر في شجره. يتدفق حياة ونشاطا وثمره. للاروفياء المتقين. والمهل في أصداف البراكين. يغلي ويزجر. ليندفع وينصب على العاقين والشياطين. ويظهر الخور من أدران الفاسقين. وينشر الخصب والبركة. بين البررة المهضومين. يخرج كما يخرج الحق من الظلام. ويمرّق كما يمرّق الظلام من الغضب. تبجل حقيقة هذا الشعاع ولكذك تراه نوراً في كل مكان ومن البعث أن تحاول مسه في أي آن. فتتحية إلى الشهداء في يوم ذكراهم المستمر. وسلاماً على من كانوا ولا يزالون الشمس في حرارتها وقد جلسوا على عرشهم يطالون على صحراء الامام والمجاورين. يرقبون شؤون امبراطوريتهم. ويتجولون من الافق على رعيهم. والكل ينعمشون بنظرتهم. ويزودون نسيهم. ويستنشقون إقوجات حفيقتهم. فاسطعوا يامسادة الاقوام. والمعوا وازدهوا فوق الآ نام. فوادى للنيل قهركم. وأهله حاشيتكم. وصماؤه وسادتكم. وأرضه تنبسط على أعينكم وتدور. لتسدوا عليها من سلامكم بهجة الخضرة والنور. وروعة النضرة. والسرور. وتسبلوا عليها ثوبا من جلال القوة والمقدرة. بينما الزمن يجري على مرأكم خاشعا. وإذا ما دنا منكم هرول راكعاً. ضارعا أن تنتصموا له من نفسه. وأن تؤاخذوه على جريرة تلبيسه وبأسه. وتقتصوا منه الجزية تردده. وإبلاسه. وخبثه.

الزمن ! إنه هذا الجيل الذين أطاعوا النواوين. ولما برزت لهم الجحيم. ودنوا من حاقها ليكبكبوا فيها مع المبلسين. طمعوا في أن يغفر الوطن خطاياهم. وأن يلحقهم بالصالحين. وأن يجعل لهم لسان صدق في الآ خرين.

وما نزلت الجنة إلا للمتقين الذين يقولون بأسمائهم ما في قلوبهم .
 الزمن ١ : إنه هذا الجيل الذي يسمى إلى الشهادة ويخفد . وإذا ما تلقى
 عليهم أقصى الدروس عاداً دراجه وفي السير جد . فما لا يلوى على شيء . هلوماً
 ومن خلفه جلال الجبهة الهادئة الساكنة يضيء له الدياجير . ويكشف له
 بمصباحه عن المصير . في مقدرة لا تجاريها بين الانسانية مقدرة . ذكرها
 نهار . وغياها ليل .

فيا مصدر أنوار القلوب ! لقد فسدت النفوس . وتحللت الاخلاق . وأصبح
 يطعم في الناس . من عاف الطين والذهب بالامس : وأمسى في مصر شبان
 وشيوخ ورجال ونساء يحتضنون الجريمة . ويتخذونها رأس مال بحاربون به
 الامة في كرامتها وشرفها ومهمتها . عدل لقمة يتبلغونها . وقابل حصاد
 يتمرقون في قذارته . فنزلوا بالاخلاق إلى أحط دركات الفساد المؤدية بالفرد
 والجماعة إلى جعل عنصر الاجرام مقومات الحياة ودعائم الشرف وتكآت
 الكرامة . وخطوطا صالحة لتكوين انسجة الضمير واصطناع الياف الامة .
 وكل ذلك راجع إلى الاستهانة بحق الامة . وجعله موضع مساومة على
 المناصب والوظائف والحكم ووقف المنافسة على ما يرمى اليه هؤلاء الذين يغضبون
 للناس . ويحقدون على الوطن ويحنفون « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس
 قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء . ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا
 لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا انا معكم إنما نحن
 مستهزون الله يستهزي بهم ويعدهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الذين
 اشتروا الضلالة بالهدى فازبحوا تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذي
 استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون
 معهم بكلمة فهم لا يرجعون »

يا مصدر أنوار القلوب ! لقد انصرف غالبية الأمة عن صراطكم السوى
 وخرجوا على مبادئكم. وجروا مصر إلى الفحش في الوطنية. وإرتداء رث
 الاثواب القومية. وامتنان الكرامة العامة. ولقد ذكرنا هذا الموقف بموقف
 « كورديليا » في رواية الملك « لير » فبعد أن غدر بها هذا الملك. وانزع
 منها حبه. وسلبها نعمه. وحرمت طيبات الحظ هجرها خطيبها اللدوق ده
 « بورجونيا » ولكن ملك فرنسا لجأها قائلاً : « أن يؤمك يا كورديليا الحسنة
 قد جعلني أراك أغنى منك في أي وقت مضى. وعزلتك قد رفعت من
 قدرك. ومأساتك قد ضاعفت حبي إليك. فيما أنهم هجروك والقوك فوق
 للثرى فاصحني لي بأن أرفعك في إحترام متأجج. ولتكوني ملكتي وملكتنا
 وملكة رطايانا وملكة فرنسا الجميلة »

لقد أحب الحزب الوطني « كورديليا ». أحب مصر المغلوبة المنكودة المنكوبة
 المضطهدة عندما هجرها أبناؤها. وطلقها زعماءها. وخان عهدها قادتها. فمقد
 عايتها بدافع شقوتها. والعمل على راحتها وطمأنينتها. وفي سبيل انتقاذها
 احترم مظاهر الزواج الغنى. وازدري بالمناصب. واشماز من الطين والعقار.
 وطفق بعزها بأجل أناشيد التشجيع. ويسلمها بأعذب ترانيم الحنان والعطف
 المتدفق من أعماق قلبه القوي قوة قلوب الفرسان في هجراتهم. الرحيم رحمة
 قلوب أحن الوالدات على فلذات أ كبادهن.

ولكن سوء الحظ قد انتقض على رجال الحزب الوطني فانهمكهم واضطهدهم
 وشردهم. فما كان من « كورديليا » إلا أن وجدت سريراً للشقاء والآلام مريراً
 قاسياً فقالت للحزب الوطني ! « تألم وحدك ولا ذهبن إلى حيث الذهب الوفير
 والفراش الوثير. حيث يملو جبينى رياحين النصر وأ كاليل الظفر والفخر »
 ولكن لثرت لحناها. ولنغفر لها ولانلنن الايام التي همتا فيها بحبها ساعة إذ

تجملات بدموعها . ولنمنح عنها . فقد أضلت فضلت . وخدمت فالتخدمت
وضاعت ثقتها . وآن لها أن تندم على ما فات . وتندبر ماهوآت . ولا زلنا على
موعدها في سبيل خدمتها وخدمة الإنسانية الجريئة الدامية . ولتعلن مصر أن
الحزب الوطني « كزرع أخرج شطأه فأزره فاستعاض فاستنوى على سوقه يعجب
الزرع لغيرهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة
وأجرأ عظيما »

يا مصدر أنوار القلوب ! دمت وأدامت أنوار إيمانكم تنساب أمطارا
ذهبية تطل فتتحال خيوطها على أجنحة الهواء . فاذا بها ألوان فصول السنة
اكتسها الغبراء . لتجمل أنصاركم أقوياء مننحين . وجوههم نضرة . لا ترهقهم
فترة . كالاشجار كسها الطليعة أثوابها الخضراء . وأولتها ثمارها الفسحاء .
يا مصدر أنوار القلوب ! إقذفوا باسعتكم على الذين ناصبوا مبادئكم العداء
انتصارا لمصالحهم الخاصة . أقذفوها حولهم من كل مكان حتى تكون « دشا »
ساختا يطهر الأدران . ولتخلعن عليهم جاذبية تققاد اليهم المبادئ الصادقة
كتلك الجاذبية التي تخلصهم السقاء على الرياحين والورود . تراف من الأزياء
والألوان . حتى تتسابق المبادئ اليهم فتلبسهم . فلا يتجشمون نصبا . وتغرو
نفسها بهم فلا يتكبدون في اعتناقها نعبا .

يا أيها الأرواح الكريمة ! تناولي ريشة الفن . وصوري لهؤلاء الذين
زهدوا في الحق . وطمعوا في الباطل . صوري لهم وفاق مقتضيات الحال . وما
أصبحت عليه حاجة السادة « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم
غشاوة ولهم عذاب عظيم » . صوري لهم خلعة سنية . وحلي بالذهب والنفضة أجسادا
تعشق الذهب والنفضة . ولوحى لهم بلوحات برافة أخاذة من أخف المعادن
وأغلاها لمن يعبد أخف المعادن وأغلاها . وأسبغى ثوبا من البرد للذين يريدون

أن يكونوا فرقة بيضاء - أو كوكباً في عين دعاء. واسبلى معطفاً من رداء على الدين.
يرغبون في أن يكونوا وردة حمراء. وجلى كبار المطامع كما حبات القدرة
الطاووس. بأبدع ما صنم الباري من جماع الألوان. ليختاروا اختيال العروس.
يعجب برشاقنها الفنان. وانفجى الاطلم ثوبا من خيوط الفجر. يباهون به
السكواعب الحسان. واحتفظى لنا بزقة السماء علنا. نتمتع يوما بما تنبت
الثرقة من صحو ينمكس ضياؤه على سطح البحر الهاديء فتتمثل أمامنا طبيعة
القلب. والافارغى ضياءك على القلوبك ينمكسها. ويسلك الخماسة فيها ويجيها
ويعلمن للوجود. معنى الخلود. «وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة
والعشى يريدون وجهه. ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع
من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا. وقل الحق من ربكم
فمن شاء فليؤمن. ومن شاء فليكفر انا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها
وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه. بئس الشراب وساءت مرتقاه»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« ولولا فضل الله عليك ورحمته لممت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم . وما يضرونك من شيء . وانزل الله عليك الكتاب والحكمة . وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » وصلاة وسلاما على من أنزل عليه « فلما انبجأ إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق . يابها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم اليئسنا منكم فنفيتكم بما كنتم تعملون . إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزبنت . وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاهم أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس . كذلك نفعل الآيات لقوم يتفكرون » « محمد » صلى الله عليه وسلم . سيد المرسلين . وخاتم النبيين . وأمام المجاهدين . أقام صراط الخلود على أن « من في الدنيا ضيف . وما في اليد طارية . والضيف مرتحل . والعارية مؤداة » ومن قاعدة المجد على أساس حديثه الشريف : « أحمذوا الدنيا وحلاوة رضاها لمراة فطامها » . ورضوان الله على صحابته والزاهدين في حطام الدنيا « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله . والذين آدوا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم » أما بعد فهذه « فآخه » كتابي في سبيل الوطن « وهو كتاب أخرج للناس هدى ورحمة . في عدة استفادتهم مذكراتي ولا سيما ما دونته منها خلال حياتي السياسية التي بدأت في سنة ١٩٠٦ . واني

لا نلتم هذه المذكرات تلبية لنداء الذين كرتهم المحنة الحاضرة . وأجابة للخلق الوطني القويم ناشدني الاستمرار في جهادي بعد أن أوصدت أمامي سبل النشر الأخرى . والفكرة القويعة لها أثرها سواء أكانت أذاعتها بالصحف أم المجلات أم المنشورات أم الكتب مادامت التربة صالحة لانبثاقها . والجو ملائماً لتفرع نباتها . والله أسأل أن يجعل هذا الكتاب مصححة للاستشفاء يجد فيها المصاب بالسل الوطني غذاء يساعده على المتابعة . ويعثر فيها المريض بالاضطراب الذهني على دواء يشفيه من مرض القى العقلي والمغص الخبيث ويتفقد فيها المتعب ضالته من الراحة ليسترد بها الاتزان الفكري

سبب الاصدار

ان اسم كتابي « في سبيل الوطن » صريح في الدلالة على سبب وضعه والغاية منه . فالسبب واحد . والغاية واحدة . كلاهما لا يتجزأ . ولا ينقص ولا يزداد عليه .

إن السبب هو الاحتلال . والغاية إجلاء الاحتلال . بتقديم الخلق القومي وانماء الشعور الوطني والحرص على إطراد هذا النماء للانجليز خطة مرسومة نحو مصر . ولقد طفقوا يحاولون تنفيذها منذ سنة ١٧٧٥ وفي كل دفعة كانوا يفسلون فيها يعمدون العمل لإنجاحها كرة أخرى . وفي شكل آخر . ولكن جوهرها هو هو . واحد لا يتغير ولا يتبدل وهو ضم مصر إلى إنجلترا بإرادة مصر وإقرارها .

ولقد اعتادت إنجلترا في كل جيل أو ما يقرب من جيل — مع احتمال الزيادة والنقص — أن تقطع مرحلة من هذه الخطة . فان ركزت أقدامها عندها وثبتت بدأت مرحلة أخرى بعد إنتضاء هذه المدة . وعلة إنتضاء الثلاث

والثلاثين سنة واضحة هي العمل على طبع الجيل القادم بطابع خاص .
 في سنة ١٧٧٥ ، أبرمت إنجلترا مع أبي الذهب معاهدة خاصة بمرفأ
 السويس ورسو السفن الانجليزية هناك . ولما كان ثغر السويس أوبرزح السويس
 أو قناة السويس هي مصر . بل وادي النيل والاماكن المقدسة . فان خليفة
 المسلمين أصدر في ذلك الحين فرمانا يقضى ببطلان هذه الاتفاقية . تخضعت
 إنجلترا وقتئذ لقوة السلطان وشوكته . ولكنهم لم تقلع عن غاياتها . ولم
 تستأصل جرثومة الطامع في مصر من اصحابها . بل تحبذ الفرصة وتربصت بمصر
 الدوائر حتى تقتنصها . فاذا ما وقعت بين أيديها لا تفلتها .

في سنة ١٨٠٧ — ولا يمكن سياسياً أن تكون مطاردة بونايرت في مصر
 تنقيداً لخطوة احتلال مصر — أنزلت إنجلترا جنودها في الاسكندرية بعد أن
 أطلقت مدافعها على الابراج فهدمتها . وأبرمت معاهدة حماية مع حاكمها .
 كما أنها كانت قد عقدت مثل هذه المعاهدة مع البرديسي حتى يتم لها خضوع
 مصر . ولكن الشعب المصري أكره الانجليز بعد معارك رشيد وغيرهما من
 المعارك التي وقعت في البحيرة على الفرار حتى ركبوا البحر وفي طيات أعلاهم
 آيات الخزي والعار . ولقد أبرموا في ذلك الحين معاهدة مع وزيراً خارجية
 مصر ولكنهم مع ذلك لم ينتزعوا من نفوسهم الغل الذي أنبته غلب المصريين
 وانتصارهم عليهم . وجعلت الفرحة تنزلاً لذكروا الطعنات التي توالى على
 أققيةهم بين رشيد والاسكندرية . ولذلك رأبناهم يشتركون مع روسيا
 وفرنسا في تدمير الاسطول المصري غيلة وخيانة في معركة ناورين في تشرين
 أكتوبر سنة ١٨٢٧ . ثم قاوموا محمد علي فيما بعد بمناسبة معاهدة كوناهاية
 سنة ١٨٣٣

وفي سنة ١٨٤١ أتمت إنجلترا شطراً كبيراً من مهمتها . إذ أضعفت مصر

إضعافاً كبيراً بمعاهدة لندن وما تلاها من فرمانات . ولما توفي إبراهيم ومن بعده محمد علي . هدمت مجدهذين البطلين بيد عباس الاول . ثم حصلت على امتياز سكة حديدية بين الاسكندرية والسويس وقامت فكرة حفر قناة السويس . ثم سلبت من قيصر روسيا في سنة ١٨٥٣ . ومن نابليون الثالث سنة ١٨٥٧ تصريحا بالاستيلاء على مصر . وفي سنة ١٨٦٦ أعدت حملة لغزو مصر ولكنها عادت أدراجها وهي في منتصف الطريق بمناسبة الهدنة التي عقدت بين ألمانيا والنمسا . ثم حالت دون إعلان استقلال مصر في سنة ١٨٦٩ وفي سنة ١٨٧٢ وفي سنة ١٨٧٥ بطشت إنجلترا بمصر البطشة الادبية الكبرى . إذا أوفدت المستر كيف لمراجعة حسابات المالية المصرية . واشتركت في صندوق الدين . وفي نوفمبر من تلك السنة أتمت الصفقة الخاصة بشراء أسهم الحكومة المصرية في شركة قناة السويس فتم لها الفتح الادبي . وتلا ذلك العمل لتثبيت هذا النفوذ وتحويله إلى نفوذ مادي . ثم جاء جوشن في مهمته . وقرر مؤتمر برلين في جلسة صريه بايمان بسمرك الموافقة على المراقبة الثنائية قصداً إلى قيام الخلاف بين إنجلترا وفرنسا في مصر كما قام بين ألمانيا والنمسا في شلسويج هولشتين . وأعقب ذلك نزول الطامة الكبرى . إذاحتلت إنجلترا مصر في سنة ١٨٨٢ فاستحال النفوذ الادبي الى نفوذ مادي حيث أمكنها رغم ان اتفاقية الاستانة أن تحاول املاء ارادتها على الدول فيما له مساس بمصر أو بموقف الاحتلال البريطاني فيها . وجعلت من مفاوضاتها مع الدول قصداً إلى الجلاء عن وادي النيل كما جعلت منها مع احزاب الحكومة خرسوفة تنزع منها ورقة أو عدة ورقات في كل . دفعة . وناهيك بذلك التحفظ الذي حلت عليه نفاذ معاهدة سنة ١٨٨٨ وهو الخاص بعدم التعرض لجيش الاحتلال في مصر . ثم اشتراط عودتها إذا اختل الامن في مصر بمسد جلائها عنها . وهو الشرط الذي اخفقت من أجله اتفاقية دروموندولف . أضف

إلى ذلك كله تصرفها في الأراضي المصرية بعد أن أرغمتنا على ترك السودان .
اقتطعت من جسم مصر أجزاء شاسعة . أجرت بعضها وتنازلت عن الباقي
الأخر مما تعلّق بذه إلى مصر على شرط أن تصبح قادرة على حكم نفسها بنفسها
استعادت السودان باسمها والناو دماثنا وجعلته شركة بيننا وبينها على أن يكون على
الغرم فيها ولا إنجلترا القم منها . ولقد كانت المعاهدة الخاصة بتسوية
السفلى (السودان) بين إنجلترا وفرنسا هي إبدأ تصفية الحساب بين
الدولتين .

وفي سنة ١٩٠٤ تمت تصفية الحساب . وأمضت فرنسا وإنجلترا إلى
الودى . فانطلقت يد إنجلترا في مصر رغمًا من أن وضع القضية لم
يُتغير .

اكتسبت إنجلترا في مصر هذا المركز . ولكنه لم يرض كل مطالب
فاغترمت أن تعمل على توطيد أقدامها وترسيخ أساس استعمارها .
إذا ما جاء أجل الاتفاق الودى في سنة ١٩٣٠ استطاعت أن تواجه الدول
واقم . ولكن الحوادث والخطوط سبقتها إلى تحقيق غايتها . وخيانة الظن
والسياسة شددت أثرها . فقد وقعت الحرب في سنة ١٩١٤ . وحسرت
اللائم من حمايتها المقنعة وجاءت بحماية صريحة فيل وقتئذ أنها لضرو
حربية . وهي حماية لم ترفع حتى الآن فعلا وأن تبجح البعض في القول
رفعت . وأن إنجلترا كفت أيديها عن التدخل . إذ القانون الدولي
وجود الحماية نظريا . والتدخل السرى يؤيد وجودها العملى فعليا . وهذا
دليل أقطع على وجودها من أننا لا نعمل صملا إلا إذا راق إنجلترا ؟

وها هو جيل جديد يطل علينا . فإذا اعددنا لمقاومة ما عسى أن تقا
به إنجلترا في مستقبل الجيل القادم ؟ لمن المحتمل أن تقا جئنا بما يصرف -
عن غارتنا كتسيير حملة لا كتساح الحبشة مثلا تحقيقا لمشروع غلادستون
كما أنه من المحتمل أن يقا جئ العالم بكارثة حرب عالمية جديدة . فهل نحور

قوة تقاوم بها الاحتمال الاول . أو على اجماع يمكننا من انتهاز فرصة الاحتمال الثاني لا نتراجع استقلالنا وتدعيمه ؟ ليس الامر بداع إلى التردد والحيرة أو التشكك . فالموقف واضح . والاستعداد جبلي . ولا جواب إلا أننا اليوم لعاجزون عن القيام بأي حركة كريمة شريفة . فما هو السبب ؟

محنة اليوم

إننا اليوم في محنة ، وهي محنة نفسية خلقية عقلية عصبية مامة . ولقد نشأ الحزب الوطني بها منذ الناشئة الاولى لتكوين الوفد .
أبان الحزب الوطني حقيقة المصير القدي أننا اليه اليوم ساعة إذ يقابل سعد المير ونجبت في ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ وتنازل له عن مصر مقابل تنظيم للحماية على قاعدة منح بعض امتيازات داخلية للامة المصرية . وأبانه ساعة إذ خطب سعد في الجمعية الجغرافية ، وساعة إذ أصدر الوجهاء ومن في حكمهم منشورهم الذي سجلوا فيه على مصر مسئولية الثورة عند ماعين الفيصل مارشال النبي حاكماً مطلقاً على مصر والسودان في مارس سنة ١٩١٩ . وإبانه بمناسبة المفاوضات مع ملتر وفي كل مناسبة أخرى سواء بنشوراته أم خطبه أم كتبه أم تقاريره أم صحيفة اللواء المصري والاعخبار أم باقلام كتابه ورجاله في كل عهد من عهود انوارات الحزبية . وكذلك أبانه نوابه من فوق منبر البرلمان .

ولقد علل الحزب الوطني هذا التنبؤ أو التوسم بضعف الزمامة ضعفاً سياسياً خلقياً عقلياً عصبياً . وعجزها عجزاً مطلقاً عن فهم الآثار المترتبة على قانون التوارث المصري العام . حتى انتقلت العدوى من الزمامة الى الامة . فأصبحت

مترددة حائرة متشككة لا نستطيع حكماً ولا استقراراً . لان الرأمة تسلط عقل نمي على أنصاف عقول أو على لا عقول أو على عقول . وانصاف عقول لا تفهم أنها في هذا المستوى . ومتى انقاد كل ذلك الى الضعيف العاجز سياسة وخلقاً وعقلاً وعصباً . انطبم بهذا الطابع وتخلق بهذا الخلق وقاده ذاك العقل وحكمه هذا المصعب في ظروف ومناسبات خاصة إن لم يكن على التوالي .

واليوم رى المريض الذي كان بالامس موضع علاجنا يتغفل أن الأمل أصل الداء . والحكمة في ذلك اشتداد المرض عليه . والمريض هنا ليس حزباً حكومياً خاصاً وانما جميع الاحزاب المستوزرة . لاننا لا نزال نعتبر الوفد وحده قائمة لم تصدع في أى وقت . ولم تنشقق لاي شهوة أو مصلحة . لاذ شهوة الجميع واحدة . ومصلحتهم واحدة . هي إذلال النفس مقابل مناصب الحكم . واذا كان هناك خلاف بين الاحزاب قائماً في الوسيلة المتردية الى استمالة الحكم . فالبعض يركن في ذلك الى الاعتماد على الدهاء وهم رجال الوفد . والبعض الآخر يعتمد على التشريع وهم الاحرار الدستوريون والاتحاديون والشعبيون . وفي الحق أن سعد زغلول لم يمت ولا يزال يجمع بين الاحزاب المستوزرة . لا ذ الوفد لم يتحول عن سياسته . والاحرار الدستوريين الذين خرجوا أول من خرجوا على الوفد يطبقون فكرته وأن تصوروا أنهم هيئة قائمة بذاتها . والاتحاديون الذين تكامل عقدهم من انقراطوا . من هنا وهناك . ينفذون خطة الوفد . والشعبيين الذين تجمعوا من قائلهم تحقيق المصلحة الخاصة أو بعضها . ايام انتسابهم للاحزاب الاخرى يسمون بما رجعهم سعدورشدى وعدلى وسعيد ويوسف وهبه ويحيى ابراهيم وتوفيق نسيم وزور وثروت ومحمد محمود والنحاس . ولذلك فلا يجوز أن يتراشق هؤلاء الاحزاب المستوزرة بتهمة الاعتماد على الانجليز ولا أن يعير هذا ذاك إذا هو حرص على مصلحته الخاصة مادامت سياسة

الجميع واحدة هي القناعة بفئات الموائد البريطانية والزهدي فيما لا يرضاه انجلترا . وإذا كان المقام لا يتسع لكل ما أوردته المصحف الوفدية والحرية الدستورية والاتحادية والشعبية والمحايدة من آراء خاصة بقانون التوارث لقوى . إلا إننا نورد جملة ثالثها السياسية بعددها الصادر بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٩٣٢ بمناسبة حادث تبشير اهتمت له المصحف جميعا في هذه الاونة . ولو أنه وقع في عهد كانت الظروف السياسية مما يراه القادة المستوزرون يتطلب التماسيح في العقائد الدينية لما سمعت غير صوت الحزب الوطني يتردد في جوانب مصر قالت السياسة بعد كلام طويل

«ولو أننا استطعنا أن نوجه نفوس ناشئتنا في المدارس والكتليات والمعاهد غير هذه الوجهة الدنيا وخلقنا في نفوسهم الايمان بالحق وجذوة المثل الأعلى لمقدسه لانشأنا في جسم هذه الامة روحا قويا بدل هذا الروح الخامل الخامل الذي ما أضعف اليوم ما ينبض . ولكننا مقيدون بماض ثقيل ونفوس ضعيفة روضع سياسي يستعدي الضعفاء على الاقوياء والمتهدمة أرواحهم ونفوسهم على الذين ملأ الله قلوبهم بالحق إيماننا . غسبنا الله في أولئك جميعا ونعم الوكيل»

هذا وأشد من هذا قد قيل بمناسبة تنصير فرد . لأن الوفد والاحرار الدستوريين خارج الحكم . ولو أن للعدل إثارة في نفوس هؤلاء الكتاب . ولو أن العقل المتزن الصحيح هو الذي أملي حقا هذا الدفاع على هذه الاقلام لكان من الواجب على هؤلاء الكتاب جميعا أن يناصروا الحزب الوطني في موافقه رد حملة التبشير العامة التي قامت بها انجلترا في سبيل تنصير أمه على بكرة ايبيها بانزاع الايمان من قلوب المصريين جميعا عندما اتخذت من الاحزاب المصرية المستوزرة ابواقا للتبشير بمشروعات ملنوكركزن وتشمبرلن وهندرسن .

وتنفيد تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٢ . حتى تقضى على السنة الشريفة القائلة « حب الوطن من الإيمان » لتحل وثنية جديدة محل هذا الإيمان الذي لا قوام لامة دونوهى عبادة إنجلترا من دون الله استدرازا للخيرات . وقضاء الثباتات . وتحقيقا للمصالح الخاصة . ولحق على هؤلاء الكتاب أن ينادوا بكتابات الحزب الوطنى بمقاومة سياسة النفاق التى قضت على آمال أمة وأنزلت بها المحنة الحاضرة التى جعلت صحيفة الجهاد تصبح صحيفة الحق فى عددها الرقم ٢٣ من فبراير سنة ١٩٣١ تحت عنوان « السياسة البريطانية عدو مصر اللدود » حيث جهرت بقولها « صحفنا صيحتنا فى هذا المكان تحت هذا العنوان أمس بجاهرة بالحقبة المرة التى طالما حبسناها فى صدرنا مراعاة لما يسميه بعض الساسة (مقتضيات السياسة وترقب الظروف)

« ولكن جبل للمصابرة قد طال حتى يتجاوز طوله كل معقول . وحتى أفسد علينا جهادنا وأذهلنا عن قضيتنا الكبرى فى صورتها الطبيعية ووضعها الصحيح . . . »

ونالت البلاغ فى عددها الصادر بتاريخ ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٣١ : « وعبدنا تتوارى إنجلترا خلف تصريح ٢٨ فبراير . فباسم هذا التصريح قد تدخلت سرارحة وجهرأ ضد البرلمان المصرى ؛ وهو ينظر فى قانون من أخص شئون مصر الداخلية . وباسمه تدخلت وتدخل كلما رأت فى التدخل مصلحة حاضرة أو متوقعة . . . »

وقالت البلاغ فى عددها الصادر بتاريخ ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٣١ : « ان مطامع إنجلترا فى مصر لا تقف عند حد درس تلقاه هذا الجيل عملياً وشاهدناه بأعيننا . ومن كان فى شك فليرجع إلى تاريخ إنجلترا مع مصر فى تعويضات الموظفين ... فالنفوذ البريطانى والجيش البريطانى قائمان فى هذا البلد لمصلحة

انجلترا . وخدمة الشعب البريطانى . والتجارة البريطانية . وهذا النفوذ
الملموس المحسوس يتدخل كلما طاب له التدخل . ويبرز كلما اقتضت مصلحته
أن يبرز . ولن يعجز السيادة البريطانية انهاز الفرص واختيار المناصب . الخ »
فالجهد تعترف بجرعة الوفد . انها تعترف بأن الوفد أفسد على مصر جهادها
وأذهلها عن قضيتها الكبرى . وأخرج هذه القضية عن وضعها الطبيعي
الصحيح .

والبلاغ تسجل جنائيات الوفد وتشير إلى الحل السعيد وتدخل إنجلترا في قانون
المظاهرات والاجتماعات وهو من أخص شئون مصر وتحمّل على رضا النحاس باشا
بالإنصياع إلى إرادة إنجلترا . ثم هي تشير إلى التنفيذ شيء والاستنكار شيء
عند ما تلقى على طاق سمع تهمة الخيانة بالنسبة لتمويضات الموظفين
ان هذه الآراء هي ما كان من الواجب أن تسود العقول والنفوس المصرية
قبل المفاوضات وتسميم العقول بقبولها قبول العاجز عن كل شيء والتمسك
إلى أخط درك من حضيض الضعف ومهانة النفس

هذه الآراء هي ما كان من الواجب أن يتشبع بها المصريون في
الأكواخ والحقول . في الحدائق والقصور . في المصالح والدور . في الخلاء
والعراء . في السهل والجبل والبيداء حتى لا يفقدوا قوتهم المعنوية التي ضمنتها
جريمة سياسة حسن التفاهم واعتبار الانجليز نهبوا مشرفاء معقولين خلال نصف
وعشر سنوات . وهذا ما عبرت عنه الجهاد بقولها « صحننا صبيحتنا في هذا
المكان تحت هذا العنوان أمس مجاهرة بالحقبة المرة التي طالما حبسناها في
صدورنا مراعاة لما يسميه بعض الساسة (مقتضيات الظروف) — سياسة
حسن التفاهم — لكن حبل هذه المباراة قد طال حتى تجاوز طوله كل معقول

وحتى افسد علينا جهادنا وأذهلنا عن قضيتنا الكبرى في صورتها الطبيعية .
« ووضعها الصحيح . . . »

ولقد قالت السياسة ضمن ما قلناه عنها أنفا : « إننا مقيدون بماض ثقيل
ونفوس ضعيفة ووضع سياسي يستعدي الضعفاء على الاقوياء . والمتهدمة
أرواحهم ونفوسهم على الذين ملأ الله قلوبهم بالحق إيمانا بحسبنا الله في أولئك
جميعا . ونعم الوكيل »

وهذه كلمة حق مرقت من فم السياسة وإن هي انطبقت فعلى وصف رجال السوء الذين
حبسوا الحقيقة المرة في صدورهم « مراعاة لما يسميه بعض الساسة) مقتضيات
السياسية وترقباً للظروف) وطال حبيل مصابرتهم حتى تجاوز طوله كل معقول .
« وحتى أفسد علينا جهادنا وإذهلنا عن قضيتنا الكبرى في صورتها الطبيعية
ووضعها الصحيح . . . » وكذلك تنصب كلمة السياسة على من قال فيهم البلاغ
ما اقتبسناه عن مقالها الافتتاحيين الصادرين بتاريخ « ٢٢ و ٢٨ نوفمبر سنة
١٩٣١ وما عنت البلاغ غير سعد والاندحاس

ولكننا لانجاري السياسة فيما أوردته بالنسبة للوفد ولا نجاري البلاغ
والجهاد في حملتهما المنكرة على الوفد . بل لابد من أن ندع هذه الاقوال جانباً
وأن نؤيد الرأي بالحجة البالغة . فمن هؤلاء الضعفاء والمتهدمة أرواحهم
ونفوسهم ؟ ومن الاقوياء الذين ملأ الله قلوبهم بالحق إيمانا ؟ وما هو هذا
الماضي الثقيل الذي قيدنا ؟ وما هي حقيقةه والآثار المترتبة عليه ؟ وهل هذه
السبة التي دمع بها الوفدون والاحرار الدستوريون وجه الامة صحيحه ؟

أن الرد على هذه الاسئلة يتطلب حتماً أن تحلل زعامة سعد حتى نزن كفايتها
ونعرف قدر مواهبها . وهذا يدعو إلى تحايل سعد من نواحي قوانين الوراثة
والملاسة والوسط وبحث أتران عقله وعصبه وحواسه وذات كرتة الامر الذي

يتطلب تفصيلاً ضافياً وأخيراً عن معنى التشكك بأنواعه الطبيعية والعلمية والفلسفية. وموضوعه وأسبابه ودوافع نمائه ونتائجه وعلاجه بحيث لا نتناول تمحيص سمد الاتناولا علميا حتى اذا ما اردنا ان نكان الرءعلما بحتاً فاذا ما وصانا الى تكوين فكرة صحيحة عن زعامته انتقلنا الى بحث الامة أيضاً من ناحية قانون الوراثة وناحية قانون الوسط والتطور والرقى والتدهور حتى نعرف أن هذه الامة من عنصر كريم نبيل مقدم يسطع جوهره السامى اذا رفع الزعيم ماعلاه من صدى الزمن وحافظ على هذا السطوع باضرام نار الحمية والغيرة فى الصمود باستمرار ودأب. ونوقن أنها دائماً فى انتظار هذا الزعيم لشد أزره فى جراءة لا تعرف تراجعاً ولا تهقراً ولا تدهوراً إلا اذا تراجع الزعيم وتهقر وتدهور . وهذا يدعو الى القاء نظرة على ماضى الامة البعيد والقريب سواء من الناحية الداخلية أم الخارجية . ما وقع من قادتها أو من الجاليات الاجنبية . أو من سياسة الدول على عمر السنين ولا سيما منذ الحملة الفرنسية حتى مؤتمر ولين ومؤتمر الاستانة فى سنة ١٨٨٢ وأيام مصطفى كامل باشا .

فاذا نحن درسنا الامة على حدة وحكمنا عليها دون أن ندرس تيار الفكرة الدولية والسياسات العالمية وحركات الشعوب وتربية الزعماء فى نشأتهم وعصرهم ومدى خيالهم كان حكمنا على الامة باطلاً ولغوياً . نعم أننا اذا لم ندرس مصر على ضوء القرن التاسع عشر وقد حفل بالانقلابات الشعبية التى تربى فى وسطها بعض ولاية مصر وحكام مصر وزعماء مصر وعادوا اليها ليعيشوا وسط الزمازع وتيارات المطامع الاستعمارية المتعارضة التى كانت تؤدى الى مطاحنات هوت فى بعضها المدافع وكادت تدوى فى البعض الاخر وإذا لم نلاحظ فى هذا الدرس موقف مصر العلمى والأدبى والخلقى فان هذا الحكم يكون كذلك الذى يصدره مؤرخ عقيم على نابليون الاول إذا هو لم يعتد بالثورة الفرنسية الكبرى . بل كانت

مهمة هذا المؤرخ هي دفن الامة المصرية . وهي مهمة شأنها شأن مهمة موسيقى روميو وجولييت الذين دعوا للمزف في ليلة الزفاف ولكنهم ما وصلوا إلى مكان الحفلة حتى أدوا مهمة تشييع الجنازة وعزفوا الاناشيد المحزنة المفجعة .

فاذا نحن وصلنا إلى الحكم على الامة حكما مدعما بالاعتبارات السابقة واستخلصنا الصفات التي يتحتم أن تتوافر في الزعيم الذي يجب أن يباشر به قيادة الامة المصرية فقد حق علينا أن نقيس هذه الصفات بصفات سعد حتى نعرف هل كان رجل الساعة أم لا ؟ وهل كانت الامة عاجزة فاعجزته . أم هو الذي كان عاجزاً فاعجزها عن العمل لاستقلالها وأقدمها عن استرداد حريتها ؟ على أنه إذا كان قانون الوراثة قديم وقانون الوسط أقدم حيث يرجع ذلك إلى عهد الاغريق الاقدمين كما يستدل على ذلك من قصائد « بندار » وكما يستدل على ذلك أيضاً من الحديث الشريف « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » ومن الحديث الشريف « المرء على دين خليله فلينظر المرء من يخال » فاننا لا نرجع إلى هذين القانونين إلا من الناحية العلمية الاصلية التي ذاعت في القرن الاخير

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »



قانون الوراثة وأثره في سعد زغلول

ليس في طوق المؤرخ أن يحكم على رجل من رجال التاريخ إذا فاته الاعتماد على قانون التوارث بشقيه . الخاص والعام . وتأثير قانون البيئة . وأثر التشكك في القوة المدركة والمصيبة . أو إذا هو أهمل الرجوع إلى هذه القوانين وهو يستخلص من الوقائع صورة رجل التاريخ . وسعد هو هذا الرجل سواء أحسن أم أساء إلى وطنه . لذلك نرى من الواجب . أن نبسط كلمة بصدد هذه القوانين وأحوال التشكك وأن نطبقها على سعد زغلول والامة المصرية حتى إذا ما انتهينا إلى صورة صحيحة من سعد بروحه وفكرته وعقله وعصبه . وإلى أخرى من الامة المصرية . بحياتها وخلقها وموقفها الاجتماعي استطرذا إلى بيان أعماله وروايتها وما حاط بها من مؤثرات تحقق معها غرضه أو أخفق .

تعريف قانون الوراثة

التوارث قانون « بيولوجي » يقضى على الالة بأن تكون تكررأً للكائنات الحية التي انحدرت منها . فهو للنوع بمثابة الشخصية للفرد . فبالتوارث يعيش في أعماقنا جوهر لا يتأثر ولا يتغير مهما تعددت التقلبات . وبه تستمر الطبيعة في اتوالد لاخراج ذاتها . وتقليد نفسها على توالي الأزمان .

هذه من الناحية الجسمانية . أما من الناحية الروحانية . فينحصر التوارث في أن ينتج الاصل شبيهاً به . إلا أن هذا الرأي نظري إلى حد ما . لأن أحداث

الحياة ليست خاضعة لنظام حسابي دقيق . إذ تزداد صور هذه الاحداث
تعقيداً كلما انتقلت بها من عالم الحياة النباتية إلى الحيوانية فالانسانية .
ومهما كانت صعوبة تقدير التشابه فإن تقدير الانسان يرجع إلى ناحيتين :
ناحية التكويني . وناحية المحرك . أي جهة الوظائف المترتب عليها حياة
الانسان الجسدية . وجهة الاعمال التي تدألف منها حياته الفكرية .
فهذه اثنان الصورتان اللتان تتشكل فيهما الحياة الانسانية خاضعتان لقانون
التوارث ؟ وإذا كان فالي أي حد ؟

لقد درس العلماء هذا الموضوع من الناحية الجسدية درساً عميقاً . أما
من الناحية الفكرية والنفسية فانهم لم يستطيعوا التعمق فيها حتى الآن .
ولذلك رأيناهم يركنون في بحثها إلى المشاهدات والتجارب . ولما كان
الشأن الأكبر في تقدير سعد ووزنه هو من الناحية النفسية . وكان انتقال
الخصائص الروحية عن طريق التوارث مرتبطاً تمام الارتباط بالتسلل الجسدي
من جهة أحداثه وقوانينه ونتائجه وأسبابه . فقد تخم علينا في هذا المقام أن
نشير إلى أن الاجماع قد قام على أن التوارث الجسدي يشمل انتقال عناصر
الجسم ووظائفه . سواء أكان من ناحية تكوينه الداخلي . والخارجي أم
من ناحية أمراضه وميزاته وتغييراته المكتسبة دون العارضية فهل الامر
كذلك من الناحية النفسية ؟

يجمل بنا قبل أن نخوض هذا الناموس النفسي أن نعرف ممن انحدر سعد
وماذا كانت غرائز منبته . وصفاته وخلقه وطبعه وتطواراته .

عن محمد سعيد

ولد سعد زغلول في محرم سنة ١٢٧٧ هـ بناية إبيان التابعة
لمديرية الغربية . من الشيخ ابراهيم زغلول . وأقارب سعد علي
أن الشيخ ابراهيم كان صمداً رغم فقره وكان هكذا في عهد سعيد وإسماعيل .

يوم كان المدة اداة تحقير للذات وللخلاق . ومن ارتضى أن يلبس في سهولة
هذا الرداء البشع تيسر الحكم على قدر نفسه .

كان الشيخ ابراهيم زغلول رحمه الله كما وصفه لنا المرحوم عبد الله مك زغلول
طويل القامة . مليء الجسم . عريض المنكبين . واسع العينين . حاد البصر . فصيح
اللسان . كبير الرأس . حاضر الذهن . شهي الحديث . عف عن الثروة . فكاه في
تدبر وتبصرة . يدور مع الزمن ويلعب . وبراوغ وغان الثعالب . لا يحف له .
ولا يستريح قلبه . ولا تسكن حركته . وانما في رصانة وثؤدة تبلغ حداً خيلاء . إذا
سأله صديق أو قريب لا يسمع وإنما يجمع . لا يعرف بينه وبين الموزوع سلاسة
القياد . ولكنه شديد العناد . عسر الانقياد . يتناقى صمته والغيت الصيب . حتى في
الارض الطيب . ترى له في كل وقت . حادة مقف . ونزوة شيطان . تثير الجنان . وتطارد
الحنان . إذا أنت احسنت اليه ضاع احسانك كالخط على بساط الماء والرقم في بساط
الطواء . وإذا أنت ظللته بنعمة اشتغل بسكرها عن شكرها . وإذا أسأت
اليه دان بعد طماحه . ولأن بعد حماحه . فهو أمام الضعيف يتمم . وفي خدمة
القوى يتطوع . ويستأسر لصاحب السلطان . ويعتأسد أمام الحبان . ولقوى النفوذ
يتذل . وهلى الضعفاء يتدل . فتجده أمام المأمور كار جوحة الموالد . دائماً في
نزول رصعود . وقيام وقعود . قد حلق الانحناء في السلام والسجود . يقبل
الارض بين يدي الخاكم واليه يخفد . كأنه بهم بان يصلى الفرض أو يتعجد . ولا يحسن
الابتسام إلا إذا جلد . ولا يزداد نشاطاً وغيره إلا ساعة التسليم . ولما ارتفعت حرارة
السياطعات ادرجة الا كبار والعظيم . ولكنه في الخلاء يضطرب ويضطرم وفي
المراء يحتد ويحتدم . ويفور غيظاً . ويتميز حقداً . وينزبد حقناً . واليدان حرتان
مقيدتان . وجمرة الغضب في صدره تلتهب . فلا ينطلق لسانه ولكن همته
تضطرب وتصلك اسنانه ورقبته تلمع ويغالب نفسه على الاغضاء . ويتلوى

تلوى الحية في الرمضاء . ولا ينور وجدانه . ولا يتأسك عند الارزاء . ولا يتمسك عند الصبر والعزاء . وإذا دطاه المظهر لبي بديم الماء لشراء الاماء . وإذا تقصت غلته . زادت غلته . يرضى من الفضل . بالقول للفصل . ومن البر الجزيل . بالكلام الجزل . لا يعمل في مجاهدة هواه . ولا يركب الصعب لتحقيق مناه . وإنما يقدر إذا قدر . ولا يبسط في التقوى وإنما يقدر . لا شبیه له إلا المصهوران أنت تركته فات . وان قبضت عليه إمام . فهل تأصلت في نفس سعد غريزة الاستكانة والذلة . وتوافر فيه التجرد من فضائل البطولة والاقدام . وتنزه عن العزة والكرامة . والخدمة في موطن الخدمة . والصلابة في مواضع الصلابة ؟ وهل فاضت في أصمائه بناييم المجد الطبيعي . وتأصلت فيه نزعات الشهوات الممقوتة . ودفعات المطامع الخبيثة . فكان أداة سهلة الانقياد . وممولا هداما في بد الاقوياء . وسلاحا لمجدين في يد الضعفاء . ان قبضوا عليه لتبنيته في صدر المدو مزق أيديهم وهدر دماءهم ؟

كيف نحكم على سعد ؟

لا يتسنى لانسان أن يحكم على سعد إلا اذا عرف أولا وقبل كل شيء هل هو رجل سياسى أو عادى ؟ . لأنه اذا كان من الجائز إزاء الفرد المادى أن تلجأ الى الطريقة التحليلية في بيان أثر التوارث في النفس . فن المستحيل تطبيق هذه الوسيلة على اطلاقها بالنسبة للرجل السياسى . لان رجلا من القادة . أو زعيما من الزعماء لابد وأن يعمل بمختلف مواهبه معاً وفي وقت واحد . لا انتاج عمل معين . وبمعنى آخر . ان رجلا سياسياً لا مناص لجميع قواته من أن تشترك في اخراج أى عمل يقوم به لان نتيجة أى جهد من جهوده المنفردة لا قيمة لها إلا اذا عاونت في الثمرة النهائية لكده . واذن فالغرض الذى يدرسه من جده ما هو إلا انتاج لوسائله المشتركة

ان المفكر أو العالم يستطيع أن يكون معزول عن المجتمع وهو صاحب في أرقى طبقات التفكير واصحابها . دون أن يشعر بشيء . أو يؤدي تفكيره إلى إنتاج أى شيء . والفنان يمكنه أن يتصور أنه ينعم ويلتذ بأجل وأجل الاحلام . دون أن يتأثر بالعالم المحسوس . أما الرجل السياسى فيشترط فيه توافر الذكاء والقادر على استيعاب الخاص والعام . والحقيقة والمجاز في وقت واحد . وإلا فإنه ان عجز عن التعميم كان قصير النظر . لانه يحصر عمله في التقليد والمعادة . كذلك نرى أن السياسى ليس في مقدوره كالعالم والمفكر والفنان أن يكتبنى بما يصل اليه من النتائج العامة التى يستغلها هؤلاء من أبحاثهم لان مهمته تقتضى بطبيعتها أن يفصل فى أى مسألة خاصة . معينة . ولذلك وجب عليه أن يلهم بالجزء والكل . وأن تؤدي أفكاره إلى أعمال . وهذا مايفرض على السياسى ألا يكون نظريا مضاربا . وأن يكون على العكس رجلا يتخذ من النظريات وسيلة لتحقيق العمل الذى هو غايته . وليس فى الامكان ذلك إلا إذا كانت أرائته حديدية دءوبا تمتاز بالاقدام والشجاعة . والنقطة بالذات . والقدرة على التأثير فى المستضعفين والمترددن والمهاجرين .

فالخصائص التى يجب أن تجتمع فى الرجل السياسى لتعمل فى وقت واحد وفى السرعة والطاقة والنقطة التى تتطلبها لحظة من الملاحظات . سواء لحظات الهدوء أو الخطر . هى إذن موهبة الملاحظة التفصيلية السريعة البعيدة الفور . وحضور الذكاء الامينة التى تذكر فى دقة وفى غير تردد نتائج النظريات وسرعة الخاطر التى لاتؤسها الظروف المباشرة . والارادة الصلبة . والقوة الجسمانية التى هي أساس كل عمل من الاعمال .

ولقد دلل التاريخ على أن جميع الصفات الروحية تنتقل كها أو بعضها بالتوارث . وإذا قلنا بعضها فما ذلك إلا أنه قد يحصل أن الوحدة الاصلية تنكسر عند انتقالها إلى الخلف فلا ينجى منها غير شطر بسيط .

ولنضرب مثلاً واحداً بانتقال نشاط الارادة . فانه ككل نشاط روجي آخر يمكن أن يفتقل بالتوارث . فقد لاحظ فولتير ذلك عند مدارس آل جيز . حيث قال : « ان الجسد . ذلك المولد الخلقى . ينقل الصفات من الاب إلى الابن خلال عصور . فلقد كان آل بيوس شحا . لانثني لهم عريضة . وكان آل كانون قساة القلب دائماً . أما سلالة آل جيز فكانوا جميعاً مقادير بواسل . هامين بالعمل دواما . فياضين باوقع كبرياء . وأقبح عجرفة . مع تأدب لاحد الجاذبيته وخذاعة فالجيم . ابتداء من فرنسوا ده جيز إلى ذلك الذى ذهب من تلقاء نفسه إلى نابولي دون أن يدهوه الشعب وأقام ذاته ولى أمر عليه . كانوا فى صورة برزت فيها الشجاعة ورجاحة العقل لحد ممان مستوى الرجال

سجيز من الرأس إلى العقب . وكذلك
دت أن قامتهم . ستة أقدام . أما
ميون والوقوفات فواحدة . (راجع

الواجب إذا نحن درسنا التوارث فى
المركز السامى الرسمى شارة جدارة
كون عمل الرجل مقياساً لجدارته
فان مجد الآباء والاجداد وعلاقات
إلى حد بعيد وقد يكون كل شىء فى
نح النبلاء فى انجلترا وفرنسا وتاريخ

سياسيا ؟ أن هذا يتطلب أولاً البحث فى النتائج

النفسية لقانون التوارث وقانون البيئة وثانياً استقصاء عمق تشكك سعد وتأثير هذا التشكك في قوته العقلية والمصبية

النتائج النفسية لقانون التوارث

والآن يجدر بنا أن نبحث عما إذا كان جميع الاشكال التي يتشكل فيها النشاط لروحي تنتقل بالتوارث في درجة واحدة أو من الممكن ترتيبها حسب نظام معين من ناحية قوة انتقالها وضعفه . واجتناباً للخوض في النظريات العديدة المعقدة نقول أن جميع أشكال النشاط تنتقل على الترتيب الآتي .

(١) ينتقل جزء عظيم من الغرائز التي يتألف منها مجموع الحياة النفسية . ولقد اختلف العلماء في تعريف الغريزة . ولكن هناك تعاريف ثلاثة تواضع الفلاسفة والعلماء على إنها أدق التعاريف .

فاولها يقول : أن الغريزة حمل يقرب من أن يكون آلياً لا يدخل للإرادة فيه . ومن الراجح أنه خلو من التمييز . وتقوم به الحيوانات فصيلاً إلى الوصول إلى خرض معين باستخدام جسمها وأخلاقها

ويقول التعريف الثاني : أن الغريزة مرادف للرغبة والميل والنزعة ولهذا ينكلمون عن غريزة الخير والشر وغريزة السرقة والقتل — الخ

أما التعريف الثالث فإنه يفهم الغريزة على أنها اسم يشتمل على جميع الاحداث الروحية التي تقع في داخلية الحيوان . بما فيها جميع أشكال النشاط الفكرى التي انحطت عن صورة نشاط العقل الانسانى . وهذا راجع إلى الزعم بأن الحيوان يتمتع بحاسة الذكاء .

على أنه قد يكون هناك تعاريف أدق من تلك . فقد قال هارتمان « أن

الفريزة عمل يتفق وغرض وانما دون تمييز هذا الغرض . وقال دورين
«أنها العمل الذي لا تستطيع اتمامه إلا بتعاون الماديات مع مؤثر خارجي
في المجموعة العصبية ولا دخل لا رادتنا فيه »
والفريزة أما مركبة أو بسيطة . فالمركبة هي مجموعة غرائز بسيطة والبسيطة
هي إحدى الماديات

أما الفارق بين الفريزة والدكاء فيمكن تلخيصه فيما يلي .
(أ) الفريزة طبيعية . أي أنها خلقت في الانسان قبل أي اختبار ذاتي
أما الدكاء فينشأ في بطنه وبالجمع بين التجارب وتكديسها .
(ب) تبلغ الفريزة حد الكمال بوجه عام عند الخلقة . أما الدكاء فإنه
يتحسس ويحرب . ويفوت عليه الغرض . ويسقط في الخطأ . ثم يتهض باصلاح

من هنا يكون انعدام التمييز .
ولا الوسائل التي تستخدمها في
يلوح أنه معتاد بالفكرة ولاشية
تطور ولا تتقدم ولا تتأخر ولا
مو ويضمر . ويكسب ويخسر .

ت مطلقة فان تبدلها يقع على
ن بقاءها هو القاعدة وما التغيير
فقاعدته التغيير والتبديل .
يست أداة في مرونة العقل . فهذه
الظروف ولا أن تلابسها كالعقل

الذى يلين ويتغير فى آلاف من الطرائق . ولكن التجارب قد دلت على أن الغريزة صرنة لحد ما عندما تؤثر فيها مؤثرات ذات بأس وسلطان ثابت . وهناك سببان هامان يحددان هذا التغير فى الغريزة وهما الوسط والمادة . فالجوع والارض والغذاء والاختطار القاسية المحيطة هى المؤثرات التى تخضع لها طبيعة الانسان وتتمكن من تغيير غرائزه . وهذه التغيرات أو الغرائز المكتسبة تقر فى النفس وتنقل بالوراثة (راجع التوارث النفسى لتيوفيل ريبو ص ٢٥ وما بعدها ومشكلة الحياة لموردو)

فاذا اتبعنا القاعدة الخاصة بالغرائز الاصلية الطبيعية كان لنا أن نقول ان مجموعة غرائز العمدة ابراهيم زغلول قد انتقلت الى ابنه سعد الله زغلول . ولقد تقدم بيان غرائز الشيخ ابراهيم ضمن وصفه . ولا يمكن أن تكون زاهة هذا الوصف موضع طعن لما كان بين عبد الله بك زغلول وسعد الله زغلول من جفاء . لان اخلاق سعد وأعماله وأقواله تؤيد هذا الوصف أبلغ تأييد واذا أردنا أن نطبق القاعدة الخاصة بالغرائز المكتسبة وجب أن نبحث فيما اذا كان قد طرأ على ابراهيم زغلول ظروف وأحوال وأهوال بدلت غرائزه الطبيعية وأقرت فى نفسه غرائز جديدة مكتسبة .

لقد بقي ابراهيم زغلول فى بلدته صغيراً وطاش عمدة كبيراً . تخلفت غرائزه لطبيعة عصره الاستبدادى . عصر عباس وسعيد واسماعيل . وفضلاً عن هذا فانه لم يشترك فى واقعة من الوقائع الحربية التى بقى رجال مصر يذكرون مجدها ويتحدثون بعظمتها . ولم يعرف من المصريين هؤلاء القواد الذين تنقلوا بين الجبال والوهاد . ومجد الحروب من حولهم يطأطئ الرأس أمام مجدهم الطبيعى . والجلال ينفذ اليهم فى خجل ليس يجدى التقرب الى جلال نفوسهم ، ولم يعيش الشيخ ابراهيم

واقفات خلف ربي القلاع والحصون كأيام ذلك العاهل . ولم يسد فرنسا صمت كذلك الذي أطبق على هؤلاء الذين كانوا يتحدثون عن الموت إبان حكمه . ومع ذلك فالقلوب كانت مفعمة بالفرح . فياضة بالحياة . مليئة بدقات طبول الحرب . أما العميون فإنها لم تعهد شيئا أظهر وأنتى من تلك التي جففت كل هذه الدماء . حتى لقد قيل إن المولى قد خلقها خصيصاً لهذا الرجل . فلقبها الناس بشموسه في معركة « استرليتز » . ولكن الواقع هو أن نابليون خلق تلك الشمس بدافعه الدائبة على الانطلاق والتدوية حتى أن السحب لم تكن بمستطاعة أن تتجمع إلا في الأيام التالية للمعاركة .

« فهذا الهواء الذي تشبهت به تلك السماوات النقية التي بذغ في كبدها المجد الساطع . وتلاً في الحديد اللامع . هو الهواء الذي استنشقه أطقال ذلك العهد الذين أيقنوا أنهم أعدوا ليكونوا فرابن في مذبحه للام خملهم يعتقدون أن الجنرال « مورا » معصوم من العطب . منيع لا تناله قذيفة بعيد لا تدركه رصاصة . وإذا مارأوا الامبراطور يمر على القنطرة والرصاص من حوله يتهاطل في صفيح وتدوية . قدروا له الخلود في عالم الاحياء . بل بلغت بهم عقيدة نكران الذات أن فرضوا الموت لزاماً في المعارك الدموية . ذلك بأن الموت كان في ذلك الحين ، دليلاً مستعداً جليلاً رائعاً في ثوبه القرمزي الساخن ! لا يلوح أمامهم إلا كالأمل سواء بسواء . فإذا هو حصيد السنابل الصغير ، التي لما تبلغ سن الشباب فما ذلك إلا لانهم قد بلغوا حقا سن الشيخوخة . فنظر الموت الذي لا يخطيء في تقدير اعمار الرجال الذين أدركوا هذه السن . فالشاب كهل إذا مات في الميدان . ولذلك كانت جميع المهاد الفرنسية ذريها . وجميع النعوش الروسية . حتى انك ما كنت تهتفي فرنسا على شيخ . فاما جيش هامدة وأما انصاف آلهة »

وأما أثر الثورة للحق والعدل والقانون أو للمعظمة والمجد في الثورات فأننا نستطيع أن نستخلصه من كلمة عن أبناء الثورة الفرنسية الذين حاربوا صفوف جيوش نابليون . وظروف هؤلاء لم تكن كظروف الشيخ ابراهيم زغلول العمدة . كما أن ظروف أبنائهم لم تكن كظروف سعد زغلول أثناء العمل وبعده

أبناء الثورة الفرنسية

« وضع الامهات الفرنسيات جيلا قوى المراس . نحيا عصبيا . بينما كان الآباء والاخوة يحاربون مع الامبراطور في المانيا . ولقد دخلت الامهات هذا الجيل خلال ممر كتين . فتربى في المدارس على نفقات الطنبور . ونقر الطبول . آلاف مؤلفة من الاطفال . كانوا يرقون بعضهم البعض بنظرات حليها الحزن ورصعها الكآبة وهم يحاولون قتل فضلاتهم الضئيلة . أما آباؤهم فكانوا ينظرون بفتنة ليرفعوا أبناءهم إلى صدورهم وقدوشحها الذهب . وسطعت الاومعة من فوقه . ويضعوهم بين أذرعهم . ويضعوهم في حنو وشفقة داخل مهادهم ثم يمتطون صهوات جيادهم مولين وجوههم شطير الميدان .

« كان رجل واحد يعيش في أوروبا وقتئذ . أما باقي الخلائق فكانوا يبدلون قصارى الجهد في سبيل امتلاء رئتيهم بما استنشقه ذلك الرجل ثم تنفسه . ولقد كانت فرنسا في كل عام تهديه ثلثمائة ألف ساب . ولعمرك إن هذا المدد كان الحزبة التي تدفع لقيصر . وإذا لم يتسن له الحصول على هذا القطيع عجز من اقتفاء أثر حظه . بل انه كان الحرس الضروري له حتى يتمكن من اجتياز أوروبا .

« لم يمر بفرنسا في أي وقت سابق ليال تأرقت فيها الجنون كالي هذا الرجل . وما انتفضت عليها أيام أطل فيها على العالم شعب من الايامى والفقائل وهن

واقفات خلف ربي القلاع والحصون كايام ذلك للعاهل . ولم يسد فرنسا
صمت كذلك الذي أطبق على هؤلاء الذين كانوا يتعهدون عن الموت إبان
حكمه . ومع ذلك فالقلوب كانت مفعمة بالفرح . فياضة بالحياة . مليئة بدقات
محبول الحرب . أما العيون فأنها لم تعهد شمساً أظهر وأنتى من تلك التي جففت
كل هذه الدماء . حتى لقد قيل إن المولى قد خلقها خصيصاً لهذا الرجل .
فلقبها الناس بشموسه في معركة « استرليتز » . ولكن الواقع هو أن نابليون
خلق تلك الشمس بعدافعه الدائبة على الانطلاق والتدوية حتى أن السحب لم
تكن بمسطةطبة أن تتجمع إلا في الايام التالية لمعاركه .

« فهذا الهواء الذي تشبعت به تلك السماوات النقية التي بذغ في كبدها
المجد الساطع . وتلاأ فيها الحديد اللامع . هو الهواء الذي استنشقه أطقال ذلك
المهد الذين أيقنوا أنهم أعدوا ليكونوا قرايين في مذبحه للام خجلهم يمتقدون
أن الجنرال « مورا » معصوم من العطب . منيع لا تناله قذيفة . بعيد لا تدركه
رصاصة . وإذا مارأوا الامبراطور يمر على القنطرة والرصاص من حوله
يتهاطل في صفير وتدوية . قدروا له الخلود في عالم الاحياء . بل بلغت بهم عقيدة
نكران الذات أن فرضوا الموت لزما في المعارك الدموية . ذلك بأن
الموت كان في ذلك الحين « ملوا مستعذبا جميلا رائعا في ثوبه القرمزي الساخن !
لا يلوح أمامهم إلا كالأمل على سواء بسواء . فإذا هو حصيد السنابل الصفري
التي لما تبلغ سن الشباب فما ذلك إلا لانهم قد بلغوا حقا سن الشيخوخة في نظر الموت
الذي لا يخطيء في تقدير اعمار الرجال الذين أدركوا هذه السن . فالشاب كهل
إذا مات في الميدان . ولذلك كانت جميع المهاد الفرنسية درهما . وجميع
النعوش روسا . حتى انك ما كنت تعترف في فرنسا على شيخ . فاما جثث هامدة
وأما انصاف آلهة »

وبعد أن سقط نابليون « جلس على انقاض العالم شبيهة حزينة مفكرة .
خجيم هؤلاء الاطفال كانوا نقطا من دماء متقدة محرقة طفت على وجه الارض .
أنهم ولدوا في الحرب والحرب ، فر باخلامهم خلال خمسة عشر عاما صبور
تلوج موسكو . وشمس الاهرام . وإذا كانوا لم يبارحوا مدنهم . إلا أنه قد
التى إلى رؤسهم أن كل حلقة من حلقات الدافع عن هذه المدن تؤدي إلى
عاصمة من عواصم أوروبا . فارتسم في أدمغتهم عوالم متعددة . ولكنهم
كانوا ينظرون إلى البطحاء . ويرفعون رؤوسهم إلى السماء . ويدبرون هاني
المارق والمنعطقات فلا يجدون إلا فراغا . »

وساد السكون . « ولكنهم مع ذلك قد رأوا رجلا يصعد المنبر . ويده
عقد أرم بين الملك والشعب . فاحاطوا به في صمت . وأخذ هذا الرجل يقول
« إن المجد شيء جميل . وكذلك الطمع في الحرب . ولكن هناك ما هو أجهل !
هناك ما نسميه الحرية »

« فرفع الاطفال هاماتهم . وذكروا اجدادهم الذين تسلموا عن الحرية
فكان في هذه الكلمة ما خفقت له قلوبهم كما تخفق للأمال الحائرة أو ما هو أهد
منها . وأخذتهم هزة عنيفة عند سماع هذه الكلمة . ولكنهم شاهدوا في
الطريق أثناء عودتهم ثلاث سلات بها ثلاثة صبية . اقتادوهم في هذا الشكل إلى
« كلامار » . وكل جريرتهم أنهم نطقوا بهذه الكلمة في صوت جموري فعالت
شفاه الاطفال ابتساما عجيبة أمام هذا المنظر المحزن .

« ولكن خطباء آخرين صعدوا المنبر وعددوا هلنا نة فح المطامع ونادوا
بأن المجد غالي الثمن . وابانوا فظائم الحرب . واستمرروا طويلا ينددون بالاو هام
الانسانية التي كانت تتساقط من حولهم تساقط أوراق الشجر في الخريف . »

والجميع يصغون ويفركون جباههم بأيديهم . وكأن حمى شديدة أيقظتهم . «
« وقصاري القول إليهم ترقبوا الظرف المناسب للانفجار . وكان ذلك عندما
اجتازت أفكار «بيرون» و «أراء» «جيتيه» حدود فرنسا . « ذلك بأن صوغ
أفكار عامة ما هو إلا تحويل ماح البارود إلى بارود . وثقل امتص العقل
الساخر اللاذع . الذي نحلى به «جيتيه» العظيم . عصير الفاكهة المحرمة كما بمنص
الامبيق ربح الازهار . حتى خيل لمن لم يقرأه أنه جهل كل شيء . وسمحت
الفرقة عباد الله البؤساء على اجنحتها إلى هاوية الشك العام كما تحمل الرياح
الاثرة »

(راجع الفصل الثاني من اعترافات موسيه)

فهل الظروف التي اكتشفت الشيخ ابراهيم زغول كانت تؤدي به إلى أن يفضي
للكرامة والحراف أم كانت من شأنها أن تغير من غرائزه كما غيرت ظروف
الثورة الفرنسية وظروف عروبوات نابليون من غرائز الفرنسيين؟ وهل كان لها في
نفس سعاد أيام حملته ما كان لها في نفوس أبناء فرنسا؟ إن الشيخ ابراهيم زغول
لم يرفع عينه عن الالة التي كانت تكرهه على جميع الضرائب ولم المشور . ولا عن
السياط الذي سخره في سائح جلود العباد حتى ينقذ جلد نفسه . ولم يقرب سعاد
في طفولته على نهات الانتصارات والاقدام والبطولة حتى تبرز فيه غريزة
الابطال فيحقق له أن يدعى أنه أين الثورة الذي يجب أن يقود الثورة ويحكم
ليكون أبا الثورة على القديم والثورة للاستقلال والحرية وتكوين الوحدة
القومية وأنما في سعاد ابن العمدة وماش عمدة يرهب ولا يستحي . ويخاف ولا يرعوى .
ولقد ظهرت آثار ذلك في تردده ونشككه وفي استخدام سلطان كان كافياً لأحياء
أمة ميتة فاجهر به على أمة حية . بعد أن سخره في مصلحته . . .

مواهب الملاحظة

بالحواس الخمس

ان مواهب الملاحظة بالحواس الخمس تتسلسل بالتوارث مع مختلف صور النشاط المرتبطة بها ارتباطاً مباشراً . ويظهر أن هذه القوة كانت قد انطقت في الشيخ ابراهيم زغال بحكم الوسط المصري . وإلا فلو كانت السبل غير ذلك لوجدنا سعداً قد حذق حاسة التعمق بنظراته لسبر غور الأسرار الانسانية النفسية ولعرف الدفين في القلوب التي أحاطت به أو استند عليها في بعض المواقف . ولكنه كان ياتي بنظراته على الشخصيات من حوله فإذا بهذه النظرات تتراعى في غير اتساع ولا عمق . ولذلك فإنها كانت نظرات خائبة . لم تأخذ إلا صورة ما ارتسم على الوجه دون أن تنفذ في غير شفقة الى الأعماق لتنتقل منها صورة طبق حالة النفس . حتى يقارن بين العمورتين ويعيد حكاية شجاعة على الشخصية التي خصها كي يبنى على أساس الحكمة علاقته بها ويحدد طريقة العمل معها وقائه .

العواطف

أما العواطف فإنها تتمثل في قوة اذا كانت بسيطة . أي خاضعة للجسم . وتتمثل في ضعف اذا كانت مركبة . أي لها ارتباط بالروح . أما اذا كانت خاضعة لتكويننا الحسدى والعقلى مما أي اذا تألم منها ما يسمى بالخلق . فان انتقاهل يكون وسطاً بين هذا وذاك .

وتتجلى نتيجة وراثه العواطف في شكل مزدوج . فتارة نجمل من الممكن انتاج عواطف مركبة عن طريق تكديس العواطف البسيطة . وتارة أخرى تنجح الى الماضي ونحن اليه فتكشف عن جوهره بدافع عداء الوسط المحيط .

ذلك بأن في النفس غرائز وحشية وميولا رحالة ورغبات دموية جامحة لا يقهرها
الزمن ولا يخضعها. قد اخذت في قرارة كيانتها حية . ولكن مغمضة الطرف .
وعلى أهبة التجلي دائماً .

ولكن أثار سعد الكتابية لا تمكننا من معرفة عواطفه . لأنها جميعاً
متضاربة . متباينة حشوها التردد والحيرة والزعزعة والتشكك . وكل هذا
الهرع راجع طبعاً الى الجوهر الفزع الرعيب الذي انحدر منه سعد . ويكفي
أقول الرعدة أوسع من أن يمدح شيوخ البلد لتستره على نفر القرعة . فإذا نحن عثرنا
في صفحة من أقوال سعد على آية وطنية ، عثرنا في أخرى على عشر آيات مروق
وذبتة أو تراجع عن الصراط المستقيم ونكول وحنث عظيم .

أما ميوله الدموية الرحالة الجامحة التي كانت في نفسه بحكم الغرائز فإنها لم
تقوم على رفع مافوقها من الرماد في أدق المآزق الحرجة والظروف المعسمة
التي هضفت زعامته وأبعدت الحكم والسيادة عنه ولكن هذه الميول ظهرت ، إن
جبروته وسلطوته ساعة إذ كان يقفه وقت هجوم الغوغاء على خصومه السياسيين
المزل لسدموا دورهم ويحرقوا بيوتهم وينهبوا أموالهم وينتزعوا أرواحهم دون
أن يعقب على هذه القهقهة إلا بقوله : «أريدون أن أحمي خصومي ؟ » ولقد
كان له الحق في ذلك إذ لم يستكن في أحقاد غير غدر الوحشية دون اقتدامها
وجرائتها . ولمرك أنها حالة مناقضة لطبيعة الانسانية تلك التي لا تثير الوحشية
ساعة السكارة وإنما تحتاج وقت النعمة !!

وفي الحق أن هذا هو مسلك الممثلة . يقبم في عقر داره ساعة نزول
المصاب . أو يهطم إلى المأمور يتمسح بالاعتاب . وعلى المنصب يسبل اللعاب .
وإذا ما قدر غدر . وعبس للاهلين وبسر . وإذا كان سعد لم يكن في ظاهره
بربرياً وحشياً من الرحمة والانسانية إلا أنه كان رجلاً قاسياً على أهله
ووطنه . لا يعرف الدعة والبشاشة إلا لعدوه . ولا ينسلك الحب في قلبه إلا

للمادة . وإلا للمنصب . وأما من ناحية العواطف والاحساسات فلا يقل سمع
عن والده . حقد ومحابة . ولذلك فقد كان ثمن بطولانه دهورة الامة ونحطيم
قوتها المعنوية لسنوات عديدة وهذا ما لا يمكن أن تتسامح فيه الامم والاجيال

في الذكاء

ينتقل الذكاء الفطري بالوراثة . ولكنه كلما نما بالا كتساب ازداد انتقاله
بالتوارث صعوبة . إلا أنه ينتقل على أى حال إلى حنما . والشيخ ابراهيم
زغلول كان حاد الذكاء . ولولا ذلك لما عين عمدة في تلك الاوقات التي تحتاج
إلى ذكاء منفرط ومهارة ونعومة ولين ليبقى العمدة في منصبه يوما أو بعض
يوم . فكيف بمن قالوا أنه بقي عمدة عهداً طويلاً ؟
وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن عمل الذكاء دائماً ما يغلب على عمل الغريزة .
وهذا أثر من آثار المقاصة . فكل عضو تزداد قوته تؤدي هذه الزيادة الى
اضعاف قوة عضو آخر . فذكاء سمع الوراثة والمكتسب قد أضعف نفسيته
وأفقدته ميزات كثيرة سنعرفها فيما بعد كما سنعرف علمياً عند الكلام عن التأثير
الديني وتحويل سمع الى مذهب الشافعي أن هذا الذكاء المفرط كان سبب ضعفه سياسياً
وفي هذه الحالة ترى التوارث يقوم بمهمتين . فبالنسبة للذكاء نراه
عاملاً على الاحتفاظ بما يكسبه كل جيل من الاجيال . ويكسبه ليكون هذا
المكتسب وسيلة لكسب اخرى أوسع نطاقاً كالبح المركب . يزداد رأس ماله
فيزداد ربحه على التوالي . أما بالنسبة للغريزة . فان التوارث يعمل على استئصالها
إلى الضعف . ويضمن استمرار وقوع هذا الضعف على توالى الازمان . وبما
أن قانون التوارث يجعل استرداد ماتمقده الغريزة متعذراً فإنه يمهّد لحظ جديد
من خسارتها وضعفها . وأذن فقانون الوراثة يؤدي بحركة واحدة إلى
نتائج متعارضة .

ولهذا رأيت في سعد أن ما اكتسبه عن والده من الذكاء الفطري قد غلب
عزوا قويا بفضل تربيته والبيئة التي تعلم فيها . وهي بيئة اشتملت كل الاختلاف
من الناحية العلمية والأدبية والفنية عن بيئة أبيه

التعادات والذاكرة

لقد اختلف العلماء فيما له أساس بانتقال العادات والتقاليد من جيل إلى جيل
يكفي أن نقول هنا أن سعداً كان ينسى في يومه مصلحه في أمسه . وكانت
تخونه اليدوية ساعة المدهيات والنوازل والبوائق وتطاحن الاغراض وتنازع
المطامير . وهذا واضح في أعماله وأقواله . كما هو واضح في الاضطراب
البارز في تجميع الحوادث التي كان يبتكرها ساعة المأزق . فخذ مثلاً . « هل عندكم
تجريدة؟ دلوني على السبيل؟ » مع أنه تمسك بحق مصرى السودان قبل ذلك
بقليل . ثم التنفيذ شيء والاستنكار شيء آخر . والفضيلة المصرية دولية .
ولا مجتمرا مصالح لا تتعارض مع الاستقلال وسننفسل ذلك باب التشكك .

قانون الملازمة

وإذا كان لانزع في تأثر الجنين بغرائز الوالدين إلا أن هناك من العوامل
ماله من السلطان القوي المعرقل لقانون التوارث بسند الوضع . وقد حاول
« هيكيل » أن يربط هذه المؤثرات تحت عنوان عام هو « قانون الملازمة »
ورد هذه المواسل إلى الغذاء والهضم باوسع المعاني (راجع تأيخ الطليقة
الطبيعية لهيكل جزء ٩) . وهذا ما سنشير اليه عند بيان حياة سعد بالأزهر ويكفي
هنا أن نقول أننا دائماً ما نشهد مخرج الحرية والاختيار في صورة أشجع مما
يمكن تصورهما عندما ننظر إلى هذا النضال المستمر . أمحقنا بين الاخلاق
الفردية والاخلاق النوعية . أي بين الشخصية والتوارث . ولكن الناس

يأبوا التسليم بذلك وينسبون كثيراً أن الوراثة سلطاناً على تكويننا وأخلاقنا. أقرون من نفوذ المؤثرات الخارجية مادية كانت أو أدبية. ولين ينسب ذلك كل الحق إذا هم لم يهتمدوا على التجارب. واذن فالوراثة قد قتلت الحرية في أحسن أحوالها. ولذلك كان جباراً مع الضعفاء. وأداة ذليلة للهدم في يد الأقوياء. ونار تحبض فياض بالأدلة القاطعة على صحة هذه الحقيقة التي لا يأتيها الجادل من خلفها ولا من بين يديها. وسنفصل هذه الآيات المعجزات تفصيلاً وافياً فيما بعد.

قانون البيئة

أثره في التوارث الخاص

لقد دعى أخيراً علماء الطبيعة والنفس والاجناس والتاريخ بنفوذ الوسط الطبيعي في الحياة. فثبتوا أثر الجو والهواء والأرض والماء والنظام الغذائي. وطبيعة الانسجة والمفردات وكل ما هو طبيعي في جسم الانسان وكيف لا تصل الاستجابات العنيفة إلى مواطن الضمير وانما تدخل بلا انقطاع في الحسب لتعدل بمساواة النمو على تكوين ما يسمى بالطبع والخلق ولا حاجة بنا إلى شرح ذلك فله كشمه الخاصة.

اما نفوذ التربية فله كمثل سلطان الطبيعة. لان التربية ما هي الا وسطاً أدبي ينتهي إلى أثر يخلق في الانسان عادة، بل عادات. ذلك بأن معنى التربية الصحيحة ليس في دروس الآباء والامهات والاساتذة فحسب. وانما هو أيضاً في العادات والعقائد الدينية. والمطالعات والاعاديت العادية والمباغنة. وهي في مجملها مجموعة من النفوذ الصامت. والمؤثرات الخفية التي تعمل في العقل كما تعمل.

المرئيات في الجسم . فتؤدي بصمتها إلى تربيتها . أى إلى اكتساب مادات . على أن الواجب يقعى بأن لا تعتبر التربية من العوامل الانشائية المطلقة وأن نحلها مكانها المشروع في عالم الابداع والخلق مع تغلب التوارث عليها . ذلك بأن وجود التوارث سابق على وجود التربية . وتاريخ حياة أغلب العظماء شاهد على ذلك . كما أن حياة المفكرين والفنانين والمخترعين تدل على أن التربية ضئيلة القيمة إذا قيس أثرها بأثر التوارث . فإذا قيل أن سلطان التربية كان مطلقا وحاسما في بعض الطبائى كان هذا القول حقا . ولكنه لا يكون كذلك في المجموع .

فالتربية وسيلة صناعة في مبدئها . نخلق فينا طبيعة فائمه تلوح في نظرنا أنها جبت الجوهر . ولكنها لا تصل إلى هذه القوة في أغلب الاحيان . فكم من رجال نحاول بهذه التربية ولكنها لم تهدم غرائزهم؟ فهي إذن ليست الادها نا لماعا ينهار فتيما عند أول صدمة . لتظهر الطبيعة الاصلية نهما ووحشيتها . أوفضا ئلها وقناعتها . ولقد يدهش الانسان في بعض الاحيان عندما يرى أن شعوبا بلغت شأوا بعيدا من المدنية والوداعة والانسانية وحب الخير بان سيادة السلام لا تلبث أن تنقلب عقب اعلان الحرب . أو عند اضطدام مطامعها حقوق الضعفاء . وحوشا كاشرة تهبط إلى أخط دركات القسوة والوحشية . ولكنه إذا ما فكر مليا علم أن الحرب ما هي الا عود لمبدأ الطبيعة . وسيادة الهيمنة والوحشية . وما وظيفة هذه الحالة إلا أن تبعث إلى الحياة تلك الطبيعة البشرية المتلائة معها . والسابقة على أى ثقافة . وتخرجها من مكمنها في حماستها . وتطوئها . وعبادتها للقوة . والمطامع الاشعبية . ولذلك قد حق قول كارليل . « ليست المدنية الاغلافا يستر طبيعة الانسان الوحشية وهي تحترق بنار جهنمية »

فإذا كان لزاما علينا ألا ننسى كل ذلك . فمن الواجب في الوقت نفسه أن نعلم

أن التربية وأن لم تكن كل شيء إلا أنها قطعت بالعالم أشواطاً بعيدة في المدنية والرقى حتى وصلت بنا إلى ما نحن عليه من رفاهة وترف . فهي لذلك عامل لا يستهان به . ومن الممكن أن نخدم أنفاس الغرائز إلى حين .
ففي أي بيئة تربي سعد ؟ وهل كان في مقدور هذه البيئة أن تؤثر في نفسيته وغرائزه حتى تغير معالمها وتبدلها أطواراً ؟

في الكتاب

لقد تلقى سعد زغلول العلوم الأولية في كتاب بقرية ابيانا . ومعلوم الكتابيب إذا إمتازوا عن تلاميذهم فبحفظ القرآن عن ظهر قلب دون فهم معانيه وحكمه وسمو مواعظه وجليل آدابه . فهم اذن حازون عن أن يبنوا الفضائل والخلق الكريم في نفوس الاطفال . قاصرون عن تقويم أعوجاجهم الخلقى وإنزاع الرذائل الموروثة . أضف إلى هذا أن «فتى» الناحية تابع للعمدة ومن رعاياه . فهو بهذه المثابة خادم أمين للعمدة ولا بناء للعمدة . لا يستطيع أن يقاوم لهم هوى . أو يصرع لهم إرادة . أو يلاحظ عليهم تنكب الصراط المستقيم . ولذلك لا يمكن أن تستنتج إلا أن وسط الكتاب أن لم يكن أتس من بيئة بيت العمدة بحكم ما يجمع من شتات ألوان الاهالى ومزاولة «المقرعة» والفلة « فإنه على الأقل متجانس معها . وحاجز عن أن يؤثر في غرائز سعد تأثيراً يرفعه عن المستوى الخلقى لا بناء العمدة في ذلك المهد السحيق .
لقد بقى سعد في بلده يتعلم العلوم الأولية الى سن السادسة عشرة من عمره . فهو إذن كان قد تكون وشب في هذا الوسط الذى يزيد الغرائز رسوخاً أن لم يرجع بها القهقري ويدهورها من جراء الاختلاط بعن هم أحط من مستوى دار العمدة . ثم انتقل إلى القاهرة لتلقى العلم فى الأزهر .

فهل كان الازهر والحياة التي يتطلبها التحصيل في الازهر - هي القوية
وتدهو التدريس فيه مما يساعد على السمو بغرائز ابن العمدة ؟

في الازهر

لم يكن وسط الازهر في مجمره بأرق من وسط «دوار» العمدة ولا في المعيشة
التي تفرض على الازهرى بأرغد مما هي عليه في منزل العمدة . وكان سعد
قد حضر العلم في الازهر على علماء أعلام كالغفور لهم الشيخ الميرزا العباسي
والشيخ احمد الرفاعي أبو النجا الشرقاوي . والشيخ محمد عبد الله . فان هؤلاء
ما كانوا أساتذة له خاصة . ولا كان اجتماعهم به على النواحي . اذا كان قد
أكثر من التردد على الشيخ محمد عبده كبيراً . فان عقيدة هذا الشيخ اذا لم تكن
خالصة من الشوائب السياسية . وإذن فقد كان سعد ككل ازهرى في بعض حلقة
الدرس ثم ينصرف مع اخوانه الى زكره . واذا خرج للرياضة والزهة فالى
أقرب بقعة منه . الى جبانة المجاورين . ولكن منه ما كانت تساعد على أن
يعتبر ويستعبر أمام طي الدنيا ونشرها . وانما ساعدته على أن يشب متمسكاً
وينزعهم متمسكاً لا لينادي بان في ميدان التسول متمسكاً بجميع حتى انتقلت العدوى الى
الامة جمعاء فأصبحت تسنكف حقها في كبرياء وعظمة هي عين الخزي القومي .
وأى وكر كان يأوى اليه سعد؟ وأية حياة تلك التي عاشها ؟ ان حياة الازهرى
في غابر الازمان ما كانت تدعو الى المنافسة في سبيل التتم بها . ولا كانت
تفري على الاندماج في زمرتها . ويكفي أن يكون الانسان سيم وصفها من
فم الاستاذ ابراهيم الهلباوى بك ليحزم بأنها حياة تعطل عن السمو بالاحساسات
والمواطف والمقل . وتعوق نبيل القلب عن الاستظهار على نقيضه . سواء أطبقتنا
قواعد قانون البيئة أو قواعد قانون الملاسة الخاص بالاعداء والهضم

فلا الجو ولا الهواء ولا الماء ولا النظام الغذائي وطبيعة الاطعمة والمشروبات
ولا الاحساسات الازهرية التي كانت تدخل بلا انقطاع في جسد سمد مما
يسنطيم أن يعاون على تكوين طبع جديد أو خلق جديد يغير خلق ابن العمدة
وطبع ابن العمدة أو يزيل أثر الرعدة المتخلفة عن «الفلة والمقرعة»

أما التربية المدرسية الازهرية. أو بعبارة أصح أما الوسط الادبي الازهرى
الذى كان في جملته مجموعة من النفوذ الصامتة والمؤثرات الخفية التي تعمل في
العقل كما تعمل المراتب الجسم فانه قد أدت بصمتها إلى تربيته أى إلى اكتساب
عادات. ولستكنها لم تكن عادات تحمل على استئصال نزعات العمدة. بل كانت
عادات تنمى نزعات المستبد الضعيف. ولا سيما إذا راعينا أن علوم الازهر
ليست أصليا مما يرمى المدارك كالرياضة والفلسفة والتاريخ الخ

لذلك تخرج سمد من الازهر مطبوعا بطابع العمدة وبقي طوال حياته
كذلك إذا كان قد اكتمل وقتئذ سن النضوج. وإذا كان الوسط التالى لوسط
الازهر قد غير فيه أو طور، فانما رماذ غشى النار لا يلبث أن يتطاير إذ
ما عصف ماصفة غيظ أو حقد.

سمد بعد تخرجه من الازهر

لقد بقي سمد تقية للدانين. وغمة للقاصدين. وغصة للعمراضين.
والهوية في يد الغاوين. وشقاء السقيم. والداعى إلى سراط غير مستقيم.
والدليل إلى البلاء المقيم. والمروج لمذاب يوم عقيم. سالك مسالك سدة
الاقوياء. وهاضم حقوق الضعفاء. ومقيم شمار دين الأذلاء وشرائعهم.
ومريد شوارعهم. ووارث مشارعهم. ليس لقلبه مفتاح. ولا لبصيرته مصباح
اتخذ الحق ظهريا. ونبذه نسيا منسيا. لا تهوى الدنيا عليه حتى يجهاها

وراءه . وإنما هي عزيزة عليه فيجعلها مكان إمامه . ولا يتصور الموت في أى وقت
أمامه . لذلك فإنه ما كان يعقد بالمدل عقيدته . ولا يطوى على الاحسان والفضل
طويته . إذا ساد لا يعتدل الجانف . ولا يقصر الجانف . ولا يأمن الخائف .
ترعد فرائض العزل من رواعده . وتبرق أبصارهم من بوارقه . وتصعق الضعفاء
برواعقه . انه كان للاولياء والخصوم الشرفاء كالغيث القادى . وعلى المخلصين
الاطهار الاتقياء كالغيث القادى . يعترف أعداء الحق بعوارفه وفضله . ويعترف
الاذلاء والمستضعفون من نواله وبذله . بينما لا يبذل أى جهد . فى رعاية عهد .
ولا يتصافى على كدر الزمان . ولا يتوافق على غدر الحداث . يحجل انه والناس
كاليدى . وأن العين لا تستعين إلا بالعين . يحول موافقه على الاحوال .
واختلاف الاحوال . لاهو لآخوانه عدة عند الشدة . ولا عصرة لدى العسرة .
يخالفك ولا يجالفك . ويصاديك ولا يصاديك . ويفارقك ولا يرافقتك . ويكاشرك
ولا يماشرك . أبداً لا يكون لك نافعاً . ولا عنك دافعاً . إذا حضر أنى ومدمح .
وإذا غاب طاب واغتاب وقدح . ظاهره خل موافق . وباطنه سرطان نافق .
يزنك بالميزان الخفيف . ويقومك بالثمن الطفيف . همته هامدة . ويده جامدة .
إذا احتاج تخاضع وتواضع . وإذا استغنى تكبر وتجبر . لا يتبصر ولا يتصبر .
ولا يعرف ان يتخذ من القناعة صناعة . ولا يرضى بالمال اليسير . حتى أمس أسيراً
للدياسير . متناقض . يكتب بالمسك ولا يخنتم . كما يقولون . بالمنبر . ويرق
بالذهب . ولا يثمر بالجواهر . جبان الى مقره اسرع من الماء المتدفق الى مقره .
لم يكن لسانه هواه املك . فهوى بالمركب اللذيذ الى المهالك . نيته معلولة .
وعقيدته مدخولة . ظاهره يسر الناظر . وباطنه يسىء الخابر . حذق التلقيق
والتمنيق . ومرد على الاختلاق والتزويق . كلامه من عناصر نفسه ولذلك
فلا تعرف الحقيقة أن تمشى فى مناكبه . ويخشى الصديق أن يترد فى مذاهبه . وإذا

حارب فبسيف كليل لا يقطع. وإذا هم ليضرب يرتد ويرجع. فترى اليراعة الجوفاء اثبتت منه قوة. وأشد منه. إذا ذكرت السيوف لمس رأسه هل ذهب؟ وإذا نقلت الأنباء خبراً عن ريق الرماح مس جنبه هل ثقب؟ وإذا جاء حديث المدفع غاب عن صوابه وتشجع. وأن دوى جمد في مكانه أو كان وكأنه قد فاجع. وصمت لمن تطلب في كل ذلك في مكانه.

مع العرابيين

ترك الشيخ سعد زغلول الأزهر وعين بقلم تحرير الوقائع الرسمية بالداخلية واستمر فيها سنة ثم نقل إلى نظارة الداخلية بوظيفة معاون أثناء وزارة محمود سامي. ثم عين ناظراً لقلم قضايا مديرية الجيزة إبان اشتداد الثورة العسكرية. واستمر في هذه الوظيفة إلى أن قمت الثورة ورفعت. ومن هنا يتضح أنه كان مشايخاً للعرابيين وأنه كان خطيباً من خطبائهم المفوهين وخدام أغراضهم الإلهية والمارقية بهذه المصلحة إلى ناظر قلم قضايا دون مؤهلات حقوقية على النحو الذي كان سعد ينادي به السعديين. فما هي عوامل هذا الوسط التي أثرت في نفسه وما هو مدى تأثيرها في غرائزه؟ وهل سمعت به عن مستوى الممد أم هوت به إلى حضيض آخر؟

ليست الثورة العسكرية بنت اليوم الذي ظهر فيه عرابي على رأسها. وإنما هي بنت اليوم الذي تم فيه الضباط لمقاومة الوزارة المختلطة التي أقامت في سنة ١٨٧٨ صرح النفوذ الأجنبي في مصر. ولقد كانت هذه الثورة في بدايتها أصاب عود وأنبل مقصداً. وأشرف غاية. وأحزم قيادة. وأبهر من الشهوة الخاصة منها في الأيام التي تسلط عليها عرابي وانضم إليها سعد بعد أن أتم التحصيل في

الازهر . حيث كانت قد تطورت من ثورة قومية الى ثورة عراقية لا فكرة عامة لها ولا غرض أهمي ترمي إلى تحقيقه . وإنما كانت أنشودتها الوظائف العسكرية الأولى . الازهر أخيراً . كما تطورت ثورة سنة ١٩١٩ من ثورة وطنية الى ثورة شعبية . وانتهت بأن صارت ثورة وظائف ووزارات .

ولقد تطور هاتان الثورتان بعامل نفسي واحد هو الشهوة الفردية التي ازدوجت بعامل فكري هو التشكك . فكانت النتيجة واحدة : تدهور عام فكري استسلام . إذ كان العراقيون في نهاية أيامهم قوماً ترددوا وتشككوا في الطريقة التي يحققون بها مصالحهم الخاصة . ولذلك فانهم أسلموا أقيادهم للخزي والعار فيما اصطاح على تسميته بمعركة التل الكبير . بعد أن ضمنت انجلترا العراق عزل الخديو توفيق . بينما الانجليز هم الذين فشلوا أمام كفر الدوار وكان في المقدور عسكرياً إلحاق النشل بهم نهائياً بدم القناة واطلاق المياه واغراق الشرقية ولقد انغمس سعد في مهان هذا التردد فطعم عاياه وتأثر به وبقي في جميع أواروظاته وحياته المقول إنها سياسية كالريشة في مهب الريح لا يستقر على حال . إننا لسنا أشفق على سعد من نفسه . ولقد أعلن جهرة وفي محضر الجمعية التشريعية بتاريخ ١٩ يونيو سنة ١٩١٤ أنه رجل متردد متشكك . متلون الشهور والعقائد حسب المنصب . ووفق الظروف . فاذا كان قد اكتسب شيئاً من الثورة العراقية . فأنما يكون قد اكتسب تدهوراً في العزيمة . واخطأطاً في القوى الفاعلة على تكييف الادراك . وتكوين الاحساسات . وهذا ما سنبينه تفصيلاً عند الكلام عن التشكك .

بعد الثورة العراقية

أبقى سعد عن وظيفته بعد اخلاء الثورة العراقية فالتحق بالحاماة أمام المحاكم الملقاة مهنته . ثم اتهم فيما بعد بانضمامه إلى حزب الانتقام وهو الحزب الذي تأسس

في مصر عقب قمع الثورة العربية . ولكنه يرى بعد سبعين سنة أيام ولما
تشكلت المحاكم الابتدائية انضم إلى المرحوم حسين صقروا شتتلا سوريا أمامها ولما
مات وضم بدله إلى الخب و لهذا الشأن حكاية قديمة . ولكن المحاماة في ذلك
الحين لم تكن مما تؤثر في النفس أي تأثير . أو تحدث فيها أي انقلاب بحكم
وسطها ووسط المتعاصرين . إلا أن نظامهم بعد كانت كبيرة . ولذلك تدخل في
المقامات المال . يورد إلى الدوائر الانجليزية . وانخرط في سلك ندماء
المرحومة الامير . باري هانم افندي . فكانت حبل اتصاله الوثيق بالساسة
الانجليز من جهة . وبعطفى فهمى باشا من جهة أخرى . وتم تعيينه في السلك
القضائي .

تقرب منه إلى الانجليز وتزلف . وارتقى في أفضالهم وتمرغ . وكان
صهره مصطفى فهمى رئيس الوزارة المطواع خير معين له على هذا التمرغ حتى
احتفظه الانجليز رخصوه برعايتهم واتخذوه وزيرهم يشهد أزراداب في
محاربة العلم والعلوم العربية والكفاءات والوطنية . والاحساس المهرى
والمصالح المصرية الاولى . والحريات بمختلف أوضاعها .
فمنذ سنة ١٨٩٠ حتى سنة ١٩١٣ والانجليز محتضنون سعداً . ومنذ سنة
١٩١٣ حتى ١٩١٨ وهم يمنونه ويواسونه . ومنذ سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٢٧
وهم يلداعونه وبدلونهم حتى انطبع نهائياً بطابعهم . واسلم زمام نفسه اليهم
وقياد زمامته لمثلهم .

لقد قلنا هذا القول وأشد منه لسعد في حياته . بل واتهمناه بالخيانة إذا
بعت مهمة الخيانة التي أسندها لعبدى باشا . ولقد قدمنا للدعا كذا وصدر
الحكم ببراءتنا وأعاد . بحجة نظرنا وهاهى جرائد الوفند تعترف اليوم بالجريمة
لعظمى في غير خجل . ولا استحياء . وفي معرض الاستجداء المسنون في قالب
لتهمير باسماء المعروف للانجليز والتساهل معهم والتسليم لهم في حق الوطن

ولعمرك أنه لتعمير بمثابة الشهادة القاطعة على جريمة الحياة العظمى
قالت صحيفة الجهاد الصادرة بتاريخ ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٣١ تحت عنوان
(السياسة البريطانية ضد مصر اللبوء) ضمن ماقلت مايتى . « صحاح صحتنا
فى هذا المكان تحت هذا العنوان أمس مجاهرة بالحقيقة المرة التى طالما حبسناها
فى صدورنا مرأها لما يسميه بعض الساسة (مقتضيات السياسة وترقيتها
الظروف)

« ولكن حبلى هذه المصاربة قد طال حتى نتجاوز طوله كل مقول .
وحتى أفسد علينا جهادنا وأذهلنا عن قضيتنا الكبرى فى صورتها الطبيعية
ووضعها الصحيح »

وإذا نحن ذكرنا هذا القول فأنما على سبيل التمثيل لا الحصر . إذ ليس المقام
مقام التذليل على أنهم الصحيحة وإنما مقام استشهاد على حالة نفسية عقلية مكتسبة
بباعت الوسط فاجاءت مدعمة للغريزة الأصلية فى سعد . وهى غريزة التسليم
للقوى . والتحقير أمام الباطل . أو طلائه بدهان يظهره فى صورة الحق تطميننا
للنفس وترويحها لما .

فاختلط سعد بالأنجليز . واستنكاكه الدائم بهم ويستشاريهم . وتموذه
هماع كلامهم والاصغاء اليه وتنفيذه قد ألان فى ابن العمدة لينه الطبيعى .
وأرخصى من دخاوته الغريزية وأطلق يده فى انتهاب حق الغير ليجود به ويستحو
تعليلاً للنفس باستبقاء هبة العمدة وأبهة العمدة . وضاعف من زهدى فى خدمته
المصلحة العامة لآل . لا يعرفها العمدة ولا ابن العمدة إلا كرها منه أو تنافراً .
يادأها احتفاظاً بنفسه أو مركزه أو زعامته على أهل قريته .

هل هناك عناصر أخرى

غيرت من غرائز سعد ؟

كان سعد من تلاميذ الشيخ محمد عبده . ولكن الشيخ محمد عبده كان رجلاً مصلياً اجتماعياً أو دينياً إذا صدقنا اللورد كرومر . دون أن يكون مصلياً سياسياً كما يدل على ذلك جميع مواقفه ومذكراته ومطالبه الخاصة بالحكم الذاتي . ولذلك لم يكن في وسعه أن يخلق زعيماً سياسياً . فهو هناك وسط احتمك به سعد غير وسط المنزل والكتاب والازهر والوظيفة ؟ وإذا كان فهل كان هذا الوسط على قوة تستطيع أن تؤثر في أفعال سعد لاجتث منها غرائز بطش الضعيف بالاضعف . ورعدة انواهن أمام القوى . وطلب الطمن والنزال إذا ما خلا سعد إلى نفسه ؟

نعم هناك رأى العام . ولكن هل كان هذا الرأى العام قد تكون أيام شباب سعد بعنة جديدة صالحة لأن تقدم أصالح غذاء لتقوم النفس . وتهذيب الخلق وتثقيف العقل . وتدعيم الارادة . وتطهير الضمير ؟ لقد شهد سعد أول مشاهد نهاية ثورة . وفترة انتقال حف كلاهما المتعاب والطين والايام والصخب والعجز والنوم .

قيل نهاية الثورة

لقد ظهر سعد فوق خشبة المسرح في عهد مليء بالحوادث الحسام فياض بشارات التدهور التي ارتسمت في أفق الغيب الساخر لتنبئ بأن مصير مصر على أهبة الانقلاب . وعهد لتوطيد دعائم الحكم الاجنبى في وادى النيل . كان مظهر العربيين وقتئذ غير مخبرهم . انهم كانوا يلوحون في صف مصر

بينما كانت برا كير المصالح الخاصة الخفية تغلب على الاطاحة بالصمامة. ورغما من أنه قد كان و مقدور أغلبية النواب الذين أيدوا العراقي أديويدوا كائما من كان نفس الحماس والخيرة والمقيدة المصطنعة والثقة الفعمية. ورغما من أن هذه الاغلبية لم تجرم صفوفها حول فكرة مدينة أو رواج معين. بل كانت حائرة مترددة متشككة لها في كل يوم شأن. وفي كل يوم ميل وشهوة. فان ارتباط اعضائها ببعضهم لم يتوثق إلا لما اذ بدغم يريدون تحقيقه بمصادقة الوزارة أو الانخراط في سلك خصوصها. كواقف اليوم وأمس ولقد صممنا المصريين والاحباب يتعهدون من العراقيين والخليويين. أي عن حزبين. ولكن الواقع كان نهض سلطانا على أن ليس. ثم فرادق مبدئية بين الممارضين والاسكويبر أي بين المؤيدين للخدو والمناصرين للعراقي فالقريقان قد امتازوا بالرغبة الشديدة تجلت في الشهوات التي استبعدتهم عن الحكم ثم فرضت عليهم السعي و مبدل استعادته.

فالشأن بالأمس كان لا يحاكي غير شأن اليوم. عقول دائما قلقة مضطربة. دون أن تقوى على أي عمل أو تستطيع استخدام ما أوتيت من مواهب لتجري أصل الداء المتأخر والوصول الى حقيقة ما الحاله. الواقع أن كل شيء في مصر قد قام بين رجال يمكن أن يقال انهم جميعا من مستوى واحد. ومصالحهم الدنيائية واحدة. هي في استبعاد من صما عليهم ومن دونهم عن الوظائف العمومية. ولهذا فان الطبقة المتوسطة سادت وحكمت. ومن الراجح أن لا يفهم حيننا كيف ظهرت حكومة عراقي في نهاية أمرها بمظهر الشركة الصناعية تجري أعمالها وراء تحقيق الاستغلال الذي يرغب فيه مساهموها. كما ان من الراجح أن يعجز الجيل القابل عن أن يتصور كيف تقل سعد هذه الخطة وطبقها. وكيف اتبعنها من بعدهم الوزارات المختلفة.

بلاغة الخطباء

أما بلاغة خطباء الثورة العراقية فقد وصلت نسبياً إلى حد معين . ولا عجب في هذا القول . فان كفايتهم إذا قيست بمستوى الأمة انضجها من ذلك الطراز الذي حذق إخفاء تجويف الفكرة وفراغها بنقابات من التخصاظة الخلابة . وتبطنها بطلاء من نوع خاص من أنواع المبادئ السامية . وتجهلها بنسج من النظريات الساحرة التي تأخذ المستمعين بالواحي والاقدام ولا تترك النظارة إلا أسرى القيود والاعلال الروحية . ولعمرك أنها قيود أقسى من الاذلال المادي . وهذا ما اكتسبه سعد وشاهدناه في خطبه . سحر ولكن يذهب باحراق قليل من المخور العقلي .

فهل سمع سعد من حاكى تيير أو كافور أو جهتا متمصاً أو متجسداً البارودي أو عبد الله النديم أو عراقى لينظم نظام الحرية الصحيحة؟ أو قرأ لواحده من كبار الرجال كتاباً وهو في ريعان شبابه حتى يشب مخلوقاً مخلوق وطنى أو سياسى كريم؟ كلا . فما كان بين العراقيين واحد يضاهى هؤلاء . وما بدأ سعد دراسة اللغة الفرنسية إلا حينما من الله عليه في كبره بالتعارف برشدي باشا فشجعه على تعلمها .

فن أن تتغير غرائزه الخفية . غرائز الطامش والظهور كنت في الضعيف لتؤذبه وتؤذي سمعته وهمته بلاده؟ من أين له أن يصل إلى ذلك وقد يحجز عن أن يعاشر عظماء الرجال ولوف كريان الوقت الذي كان فيه كالمجنونة على استمداد لان يسنه الوسط العقلي كما بهوى وإشياء؟

فهل قرأ مرة أن «تيير» جعل سلال وزارة جيزو (سنة ١٨٤٠ . سنة ١٨٤٨) يلقى في البرلمان من وقت لآخر محاضرات عن الشرف القومى والكرامة الوطنية ليهاجم بها حكم الفرد حتى برع في هذا الفن وأمسى كبير أساتذته

خفاته خطبته التي القاها بمناسبة ميزانية سنة ١٨٤٦ معجزة فنية لا زوردها كلها هنا وإنما نختزى منها بقوله « تبدأ الحكومات حياتها بالفوز والغلبة . ثم يقتادها مصيرها إلى الفشل والخذلان ... إن الأمة قد خولت الحكومة ملك المشروعية الذي يعفيها من الحاجة إلى أى سلطان آخر في الوجود لا جازة هذا الملك . ولقد كان الواجب يفرض عليها اذن أن تتبسم ادارة قوية ماهرة نظمة بصيرة . وهذا ما في طاقتنا أن نسميه سياسة متواضعة تستطيع مع الزمن أن تكون شريفة بحيدة وهل كان في المقدور منذ عشر سنوات أن نجتزى على الافصاح بأن الملك يسود ويحكم رغم مسئولية الوزراء ؟ . لقد كنا نقول إن أى فكرة عن توازن السلطات ونفوذ الملك والوزراء وتجاارب عودة الملكية وذكرى الكارثة الكبرى يجب أن تدفعنا إلى السعى في جعل المسئولية الوزارية جديدة حتى تكون الحصانة الملكية جديدة أيضاً ... وهذه هى القاعدة التي جعلت من (كازميريه) وبرىولى رئيسى وزارة بمعنى الكلمة « أن الامم المستنيرة لا يجوز ان تحكم على وتيرة الدول الاسيوية . ولكي نصليح نظام الوراثة قد وضعنا نظاماً حاكماً بقدر ما هو بسيط . وهو ينحصر في أن يكون بجانب الملك وزراء جد مسئولين . لهم من السلطان حقيقة ومظهره ... فالواجب على الوزراء الايتواروا وألا يرفضوا القيام مهمة الوسطاء والسامسة ... فالوزراء الذين يمحون أنفسهم قد يمكن أن يكونوا وزراء فصحاء بلغاء . ولكنهم ليسوا وزراء المسئولية العالیه ... وعلى ذلك بالملك يسود ولا يحكم » وهل سمع سعاد أن يجيزو أجاب على هذا القول في ٢٩ مايو سنة ١٨٤٦ بقول سامى الخطر حيث قال « ليس العرش كرسيا خاليا . وإنما هو كرسى له فكرة سياسية . ولا يجوز لاحد أن يحاول الجلوس عليه . » أن شخصاً ذكياً حراً . له أفكاره وحواسه . يجلس فوق هذا الكرسى

وواجبه يفرض عليه ألا يحكم إلا بالاتفاق مع السلطات العليا التي أنشأها الدستور... وليس من واجب مستشار العرش أن ينصر العرش على المجلس النيابي. ولا أن ينصر المجلس النيابي على العرش. فهمة الوزراء في بلادحرى الوصول بهذه السلطات المختلفة إلى فكرة مشتركة. وسلوك متبادل. ووحدة في توافق الرأي حتى تتحقق الحكومة الدستورية ؟

لم يسم سمع شيئاً من ذلك ولم يقرأ مثله وقت أن كان ص الحالتكوين جسماً ونفساً ولذلك لم تكن حماقة خطباء العصر العراقي بكافية لتخثير الفرائز إلا لأسوأ.

هل كانت هناك ديموقراطية؟

وكيف يكون الامر على خلاف ذلك ولم يكن الباب مفتوحاً أمام روح الديموقراطية التي كانت قد ذاعت في أمريكا وانتقلت إلى أوروبا قبل الثورة العراقيه بما يقرب من نصف قرن ؟

لقد كانت الديموقراطية قد أصبحت أيام شباب سـمـعـد أمراً واقعاً في أمريكا وأوروبا حيث تساوى الأمريكان أولاً في الحقوق السياسية. ثم أخذت الفكرة تمهد أمامها سبيل البيت والنماء. دون أن يـمـرـقـها طائف أو ينزل بها قضاء حتى لقد حض الكتاب في نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر على التآمل فيها والعمل لها كي يمكن الوصول إلى النتيجة المحتومة والمستقبل الثابت. إذ كلما تساوت شروط الحياة زالت الظلم المتبعة. والعادات السقيمة الموروثة. التي كانت أداة غير صالحة لأن تكفل للمجموع الانساني حياة طيبة. وقام محلها نوع من الاستبداد « الواسع الرحيم » ليمد فوق رؤوس الجماعة شبكة من القواعد الصغيرة المضطربة الدقيقة المتلائمة. التي تحتم في بادئ الامر إيجاد نظم تحمبها. ووسائل تـذود عنها. ولا يكون ذلك إلا في حرية

الصحافة وفي انشاء الجماعات والاحزاب القوية. وفي الامم كزية التي تخول كل
أقليم حياة سياسية خاصة . « هذا مادعا » نو كفيلا « الاحياء القادمة لتحقيقه
ابتداء من سنة ١٨٤٠ . فهو ذاع في وسط عرابي شيء من ذلك حتى يكون
سمعد قد تطبيع به وأفتلح من نفسه بذور الولع بالشقاء والاشقاء ؟ كلا .
وكل تصرفات العرابيين تدل على عكس ذلك . وتهتف بانهم إذا كانوا قد طالوا
بالمساواة وبادىء الامر . قامهم جعلوا منها في النهاية وسيلة حركات مصر إلى
تركة لم توزع على جميع أبناء مصر وفاق الفريضة الشرعية . وفاق الحق والعدل
والانصاف والكفاءة وقانون المنافسة إذ قصر وأوزيمها على أبناء عرابي
وذوى إرحام عرابي كما وزعت من بعده على أبناء سمعد وذوى إرحام سمعد ومن
بعده على أبناء كل وزاره وذوى إرحام كل وزارة ولكن بلا ترتيب الطبقات .

في مجلس النواب

وهل كنت تستطيع في النهاية أن تأنس في مجلس النواب نواح خصبة تقسم
لبذر بذور جديدة صالحة . وتطبق العمل لذلك . وتتحمل المجهود الذي يسألزمه
أداء هذا الواجب ؟ وهل التف حول عرابي بعض رجال تفرغوا لدراسة
المسائل الحكومية والشئون الادارية العامة وتمحيص الميزانية أو إصلاح
قانون الانتخاب وتنظيم العمل والاشغال العمومية الخ . حتى نستدل من
ذلك على وجود الروح الحزبية للترقية ؟

وهل محمد نائب من نواب عرابي . أو عرابي نفسه بمساعدة الاخضائيين
إلى رد الحياة إلى طبقة الشعب التي إنطقت فيها جذوة الحياة السياسية
مع أن هذه الطبقة هي التي لها قبل غير هامة أن عدمت المساواة حق الحياة والوجود
دون الطبقات الأخرى التي لم تدب فيها الحياة إلا بفضل هذه الطبقة المجاهدة ؟
هذا إلى أن مصالح الطبقة المتوسطة كانت قد تلاءمت لدرجة تماهى الناس معها

كل مبادسه وكل عدم لادام لاو عالم سياسى يتشكل بهذا الشكل لا يسلح لقيام احزاب فيه بالمعنى الصحيح للكلمة. مادامنا لا نستطيع ان نلخص فيه تعارضاً وحركة وخصباً وحياء مما لا يتولد إلا عن وجود الاحزاب في البلاد الاخرى «
ثم من سنطاع أن يرفع عقيرته أمام «أبي الامة» الفلاح القبح مطالباً بالتصريح لطبقة الشعب باشتراك منتظم في إدارة الشؤون العامة حتى يعرفوا أن يوجهوا الجهود التشريعية في سبيل تحسين مصيرهم الادبي والعالمي. وتعيم التكليف العامة وانصفة المساواة القانونية والرافعة الم تبطة بحق الملكية؟ من رطم صوته مطالباً بذلك رغمًا مما في هذه المسائل من شرف وعمل يستتضي به الضرورة ويحتمه التبعثر بالامنازع؟

لا. إن روحاً من هذا القبول لم تكن في وسط عرابي حتى تسهر بخلق سعد وترفعه من مستوى العمودية إلى مستوى ديمقراطي. ولذلك فإن سعداً طبق واقع سنة ١٨٨٢ على سنة ١٩١٩ وما تلاها فحق الكفاهات.

الحرقف العلمى والسىياسى

إن بحث الحياة العامة للشعوب سواء أكان من الناحية السياسية أم من الناحية الاقتصادية لابد أن يعطى بصعوبات تأداه عندما يريد أن يعرف نشأة المظاهر العلمية المختلفة. وذلك راجع إلى قوة التيارات الفكرية والتمارات الحيوية الرئيسية التى تسود الشعوب إبان نهضاتها. ولهذا تقرر ارتباط الانتاج الادبي والفنى بالظروف المتولدة من الحوادث السياسية والرقى المادى ارتباطاً وثيقاً.

فلا أدب. والتمنون لى بعض الاحيان. تختلط بالسياسة اختلاطاً تاماً. ويرجع هذا الامر إلى اشتراك الامة اشتراكاً فعلياً في الحياة العامة. حتى لقد رأى بعض الدول أن من الطبيعى أن تمثل الآداب فى البرلمان. وان تمثل السياسة

في المعاهد العلمية مادام الكاتب لا يحرز السلطان إلا بالملفوظات والمقالات .
والسياسي لا يستطيع أن يسعى للمجد إلا عن طريق العلم والأدب . حتى لقد
رأينا النائب والشيخ والوزير يجنحون إلى الجلوس في مقعد الأديب ورأينا الشاعر
والفيلسوف والروائي وعضو المجمع العلمي يميلون إلى الجلوس في مقاعد السياسي .
وشاهدنا العالم والأديب يفخران بحكم أمتهم والنشريع لها . حتى لقد كان طمع
« تيير » في أن ينخرط في سلك المجمع العلمي الفرنسي يعادل مطمح « فيكتور
هوجو » إلى أن يجلس في مقعد مجلس الشيوخ . ولما صادرت حكومة فرنسا
رواية « الملك يلهو » صاح هوجو : « الآن بدأت حياتي السياسية » فإذا
كانت الحال أيام الثورة العربية ؟

تقد كانت الثورة عسكرية . ولذلك لم تنمر إلا هدمًا وركامًا ورمادًا .
إنها لم تكن ثورة صمرانية قومية بالمعنى الصحيح . ولا هي ثورة فكرية
على الخصوص . وإنما كانت ثورة مناصب واحلال إنسان مكان إنسان في العيش
والارتزاق فطبعت شباب ذلك العهد بهذا الطابع ووسمته بهم هذا الميسم حتى
الآن . ونقل هؤلاء طبعهم بالوراثة أو المدوى إلى أبنائهم ومن خالطهم
وحاشهم . فكانت المسألة التي نشاهدها اليوم .

ومع ذلك فهل سمعنا في ذلك الحين أن الكتاب قد نادوا بالديموقراطية على
أنها قاعدة المجد الذي لا يبره مجد السلاح . وأساس النجاح الذي لم يحرزه أحد
قبل الآن ؟ وهل رأينا المؤرخين يهزون أعواد المنابر . على تقويض القاعدة
القديمة التي فرضت عليهم الوعظ في الدور والأزواء في المعاهد العلمية بجانب
العلماء ؟ وهل شاهدنا الروائيين يتحدثون عن الغيب وينبؤون بما وراء الحجب
بعد أن كان همهم ينحصر في سرد الأفاصيص ؟ وهل القينا الشعراء يسلكون
سبيل الهدى بعد أن كان دأبهم الترنم والغناء والمدح والهجور ؟ لا ، لأن

وسطا كوسط عرابي ما كان يسمح بهذا . ذلك بأن الآداب التي كانت تسمى للبهتان والنصفيق وترغب كل الرغبة في التوجه للجهاير أمست عملا تجاريا بجنا . له نظام نفمي محكم هو فائدة عرابي ومن حوله . ولعمرك انها حالة كان من الواجب أن تستثير عواطف المصريين وتدفعهم إلى رفع الصوت طالبا ضد مخازي الآداب الحديدية والآداب المصطنعة النقصية . وواقم أيام زمامة سعد كان من هذه الناحية صورة طبق الاصل من واقم أيام عرابي

الصحافة والمسرح

ولكن الصحافة التي كان من الواجب أن تكون الوسيلة الاولى لترويج هذه السلامة لم تكن لحسن الحظ على انتشار وذبوع يمكنها من ذلك . فبقى الرباء منحصرا في دوة عرابي وبيئة العرابيين دون أن يشتغل بقضيه وقضيضه الى الخلف .

على انه اذا فاء البلد في ذلك الحين وجرد هذه الصحافة المنتشرة فكسبت بذلك اتقاء تماثل الشر وتواليه . إلا أن هذا المكسب قد قابلته خسارة جسيمة هي العجز عن قتل الثقافة الغربية واذاعة النظم الامتقالية ووسائل تحقيقها أولا فأولا . ونشر المبادئ الحديثة والافكار السامية كلما تمخص عنها عقل ناضج .

ولعمرك أن موقفنا كهذا ما كان يدعو الى التأثر والاندفاع في سبيل الرقي وانما كان يدعو الى التأثر والنكوص على الاعقاب في همت التدهور . وإلا فليد لنا واحد على ذلك اطمم والمقول والعقريات والكفاءات الذين استشهدوا في دور الصحف وهم متأثرون بأن في ميدان الصحافة مصدرا لا ينضب من المجد دون الثروة . وأتمرف والسمة دون المصالح والشهوات ؟

وهل وجد في المسارح رقى يسمو بالغرائز والاخلاق ؟ بل هل رأيت
ما وقع في أخريات أيام لويس فيليب عند ما كان المنهجون الثوارات يكمون
الذين أقبل الشعب على منتجانهم يتقاضون حصة من ثمن الرواية على سماعهم
تجاري يرونه اذا لم يخرجوا رواياتهم ؟ والقصص ؟ هل رأيت الصحافة وقد
شغلت بها ثم هجرتها إلى النقد اللاذع فتولدت آداب وقتية سار وراء
شهوات الجمهور كواقع اليوم حيث يحاول الكتاب الآن أن يرضوا مطالبه
وذوقه وإحساساته ؟

حتى هذا الشيء البغيض لم يكن في ذلك الحين. حين الحذب الذهني المطلق
والجذب العسكري الحجري . فكيف لا يتأثر سعد بهذا الوسط المحيط وقد
غرق فيه من ذقنه إلى انحصه ؟

الموقف الفكري وتحولاته

لو أن الثورة العربية كانت ثورة فكرية لوجب أن تختلط الحياة العلمية
بالحياة السياسية والتجارية أيضاً حتى تألف الحياة العلمية هذا الاختلاط
وتجرى الأقلام بوصف الواقع والحقيقة بعد وصف الخيال والعاطفة والحماسة . ثم
تنتقل من هذه المرحلة فتتناول النفس والخلق . وتخرج بعدئذ بالجهود الأدبية
إلى الدراسات التاريخية ونقد الماضي وخص الآثار والفنون في القرون الوسطى
والمصور القديمة فخصا كان لزاماً أن يبدأ بإنشاء لجنة لدرس الآثار التاريخية
على نمط ما وقع في فرنسا سنة ١٨٣٧ . ثم تأسس مدرسة على وتيرة مدرسة
أيننا التي تأسست في فرنسا سنة ١٨٤٩ . وأن يتبع ذلك دراسات نقدية في
في الادب واللغة ثم دراسة الآداب الأجنبية حتى تكون مرحلة المترجمين
الذين لا يعملون العمل ولا يكلمون من توجيه سيل جارف من الآداب الأجنبية

نحو مبادئ العلم المصرية كي يؤدي الأمر إلى تجديد وبعث تاريخي . تنتقل معه النظريات من موقفها السطحي إلى التعمق وسر غور الحقيقة التي تنتجها الظروف السياسية والطبيعية والوسط على نور العلم القديم .

الفنون

وهل كان في مصر فنانون في عهد العرابيين ؟ كلا . هم أن مصر مهد الفن القديم الذي أخذ فنانون الغرب يستوحونه ويستلمونه . وها هو ده لاكروا يقول لأحد أصدقائه . « انى أصنف لك طربا وأعجبا من جراء ولوعك بالمصور القديمة . فهي ببوع كل شيء » ذلك بأن هذا الفنان قد فهم القديم كما فهمه شكسبير واعتمد عليه في إعادة التوازن للصحة الفنية بعد أن أصيبت بالحمى . فصور كيلواترا في سنة ١٨٣٩ .

إن شيئا من ذلك لم يتم إبّان الثورة العرابية مع أن الفن من مستلزمات الوطنية بل هو عنصر هام من عناصرها .

الانتاج العلمي

كان من الواجب أن يمتاز عصر الثورة العرابية بالانتاج العلمي عن باقي الانتاج الذهني امتيازاً واضحاً . ولكن ذلك لم يحصل فقد بقى كل شيء عندما نعم لقد بقى الانتاج العلمي عندما لانعدام الانتاج الفكري المترتب على انعدام ذبوع اللغات ذبوا صحيحا .

إن العلم لم يمد في متناول العاديين من الناس . وهذا مادعا في أغلب بلدان العالم الى وضع نظم خاصة للتدريب عليه . وتنظيم إنتاجه الدولي الأمر الذي لم يكن له أثر في عهد الثورة العرابية .

فهل لم يصبح من المستحيل أن يدرس الانسان الجهد العلمى الفرنسي بعيداً عن الجهد الانجليزى والامانى والايطالى؟ وهل لا يستعصى عليك التمييز بين الجهود الخاصة والجهود القومية إذا أنت ولجت باب التطبيقات العملية؟ ألا إن الأمة التى ضربت بسهم عظيم فى تنظيم العمل هى اذن وحدها التى كانت تدرك النتائج المجدية . فهل من مجهود بذلته الثورة العربية فى هذا السبيل؟ مما لا شك فيه ان الحالة السياسية والاجتماعية لبلد ما كانت تساعد مساعدة تقل أو تجل طبقاً لمجهودها فى تنظيم هذا الانتاج . وتؤدى بهذا البلد حتماً إلى أن ينال من نتائج هذا التنظيم بقدر مساعدته فيه . فأى مساعدة بذلها العربيون فى سبيل الانتاج العلمى حتى ينالوا منه أى قسط؟

ومع ذلك فان كانت البحوث والاكتشافات العلمية قد لاحت نتيجة لازمة لقوانين التطور العام ولا ارتباطاً لظهورها بالتطور الخاص بأمة معينة وانما ارتباطها يكون بسلسلة تطورات طلمية مستتلة تستوجب البحث عن قانون يجمع بين هذه القوانى المبشرة فى العالم . وهذا لا يكون الا بتنبهم فرض المقصود تحقيقه من العلم . والمكان الذى تشغله المباحث العلمية فى عالم التفكير . وحدود مكانها . أى بتوحيد العلم والذكاء العالمى . فأى مجهود صرفته الثورة العربية فى سبيل البحث عن هذا القانون؟

لقد قال رينان ضمن كتابه الخطى الذى وضعه فى سنة ١٨٤٨ وأذيع فى سنة ١٨٩٠ « ان العلم يحوى مستقبل الانسانية . فهو وحده الذى يقول لها الكلمة الخاصة بمصيرها . وسيأتى اليوم الذى لا يخضع فيه العقل المستنير بالاختبارات المصادقات ويسير فيه تحت قيادة العلم فى الاتجاه الواضح من الفرض المقصود وستكون آخر كلمة للسلم هى تنظيم الانسانية علمياً »
فهذه الافكار وشبهها قد دلت على أن مهمة العلم لا تنحصر عن أن تكون

المعمل على انشاء سيادة الرجل الطبيعية واخضاعها ووضع قاعدة يجرى على منوالها في الحياة العامة والخاصة . أى وضع قاعدة سياسية وخلقية . وهذا معنى قوله رينان . « فبأسم الله أسألكم أن تسلموا معى بان العلم وحده يستطيع أن يجعل الانسان من معرفة الحقائق الحية التى لا يقضى لنا بدونها أن نتحمل الحياة . ولا أن يكون للجماعة كيان « فهذه الصفة . وتحت هذا السنار مهد العالم للمعمل على التأثير . الجمادات السياسية كما مهدت الآداب . فهل كان للثورة المراهبية نصيب من ذلك . حتى يكتب سبباً شديداً منه باشتراطه مع المراهبين ؟ كلا . فما كان حظ المراهبين من العلم يمكن من العمل على انشاء سيادة الرجل الطبيعية واخضاعها . ونضع قاعدة يجرى على منوالها في الحياة العامة والخاصة . أى وضع قاعدة سياسية خلقية . يتسنى له بموجبها أن يعرف الحقائق التى لا يمكن بدونها احتمال الحياة أو يكون للجماعة كيان ولا مصادم اقصاء الأتقاء . وهذا الجهد هو ما دفع سعد الى أن يجهر فى مجلس النواب فى قبة تمير ودماة تفكير بأنه لا يعرف معنى للجماعة ووزارة المعارف قائلة .

ماهو الرأى العام

ليس الرأى العام همرة من الصيحات والصخب والنخوة والجلبة والنعيق والنهيق والآلام والحسرة والبكاء والنحيب والدوران واللف . أو الركون وحوله النفس والغاية والشهوة . وانما هو مجموعة مثرثات كامنة فى حركة فكرية علمية أهدية فنية اقتصادية مالبة صناعية زراعية تدوى صيحاتها فوق المنابر وعلى جدران المنازل . وفى داخلها . وداخل المدارس والجامعات . وفى أنهر الصحف والمناجر والمصانع وفى بطن الارض وجوف السماء وفى أغوار الماء وعلى سطحه .

ليلا ونهاراً ويمتد شعاعها الى ما وراء البحار ينافس ويزاحم في مختلف الاسواق .
ولهذه المؤثرات قوة مغناطيسية تجذب القلوب الى الامام ودائماً الى الامام . ولها
نور يهدي هذه القلوب ويظهرها ويشفيها من الامراض فلا تهتورها حتى ولا
يفنابها جود ولا ألم . كان الخطر ومهما اشتدت الصدمات والنوازل . فهز وجدت
هذه المؤثرات في أيام شباب سعد . أيام الثورة العربية ؟ إن ما قدمناه يدل في
وضوح على انعدام الرأى العام الصحيح . ويثبت أن الثورة العربية كانت في
نهايتها ذبحة صدرية أزاحت بصير القادة وتركهم في أماكهم جامدين حيارى
وعن شؤون الوطن لاهين . لا اختيار لهم . ولا حرية لارادتهم . ولا تفهم لحقيقة
موقفهم . فمن أين كان لسعد ما يطعمه في شبابه بطايع الأحرار والمفكرين
والمجاهدين الراسخين في علم القيادة والسياسة والفراسة . وما كان وسط
الازهر العلمى الذى تجرد من التبصر في الرياضة والجغرافية والتاريخ والفلسفة
والاجتماع الخ يؤهل واحداً من طلبته في سنة ١٨٨٠ ليكون زعيماً في سنة ١٩١٩
وما بعدها . ولا سيما بعد أن احتضنه الانجليز نيفاً وثلاثين عاماً طبعوه فيها
بطايع الذلة والاستكانة واحتقار الذات ؟

هل كان سعد رجلاً سياسياً ؟

يحق لنا بعد الذى قدمنا أن نبحث فيما اذا كان تكوين سعد وطاق غرائز
الشيخ ابراهيم زغلول والوسط الازهرى والبيئة العربية وابتهاده في بادىء
نشأته عن الوسط الراقى رقيقاً عصر يما يساعده على أن يكون رجلاً سياسياً صالحاً
لأن يزعم على مصر في سنة ١٩١٩ ؟
ان بحث هذا الموضوع يتطلب كلمة أولية عن رجال الثورات الفشيلة .
وكلمة تمثيلية عن تغلب الطبيعة على الوسط ساعة الخلق أو انطلاق اليد بعد
حجر وأسر واعتقال روح .



رجال الثورات المشهورة

كان سمع من رجال الثورة العربية . والثورة العراقية اخفقت . وكان من الواجب أن تخفق لأن رجالها لم يكونوا أهلاً للقيام بها فهل من يخفق في ثورة يصلح لأن يقود ثورة أخرى ولا سيما إذا صادق عدو البلاد والمخترط في سلكه خذمه خلال حيل ؟

لقد أثبت التاريخ أن فشل ثورة نهائياً يؤدي حتماً بمن اشتركوا فيها إلى عجزهم عن القيام بأخرى أو قيادتها على أحسن وجه . وهذا قانون نفسي لا منازعة فيه ولا شك بعد أن أصبح علم النفس هادياً في الحكم على الرجال وصلاحياتهم للأعمال التي تناسبهم قوة الإرادة وقوة الحواس وقوة العقل .

إن فقدان الصلاحية للقيادة لا يترتب على فشل الثورة أو العمل المجهد بحسب . بل هناك طول الانتظار والمادة والنظير كلها مؤثرات في النفس تدعو إلى اليأس والقسوط وخور العزم . وإذا شئت أن تتأكد من هذه الحقيقة فأتل مثلاً صحيفة ناليون قبل نفيه إلى جزيرة الباء وبعداً أو قلب صحفياً أخرى من صحف الحزب الجمهوري الفرنسي بعد ثورة سنة ١٨٣٠ . وهي ثورة أهلية لم يمدد بها احتلال قوات أجنبية ولا ارتقاء زعمائها في أحضان عدوهم .

لقد خلا النامان الفرنسي من الجمهوريين بعد أن صدر قانون يحول دون ترشيحهم . ولكن إذا كان هذا المجلس قد تجرد من ممثلي هذا اللون السياسي فإنه قد اشتمل على متطرفين ديمقراطيين . فضلاً عن أن دعاية الحزب الجمهوري كانت متناهضة بلسان « القاموس السياسي » والمجلة الجمهورية « لدوبري » وماراست « ومجلة لرق اللويس بلان . وصحيفة الناسيونال .

كان الحزب الجمهوري قد تضعف عقب وفاة جازنييه بأجيس الكبير سنة

١٨٤١ . وكافيندياك سنة ١٨٤٥ والسحاب نزيلاوراسباي . حتى لقد تسرب إلى
اليأس إلى قلوب أشد الجمهوريين حماسا أمام حكومة طال استحكامها وأدى الأمر
بالجمهوري « اراجور » في سنة ١٨٤٤ إلى أن يقول لنا خبيثه . « أصرح بأن
الحكومة الدستورية الملكية الوراثية هي الحكومة الوحيدة التي أرى أن
في مقدورها أن تفرس في فرنسا جذورها وتوأنى عمارها . واضطر هيملست
كارنر في سنة ١٨٤٦ إلى أن يصرح بأن الحجة الانتخابية بانه مخلص للنظام
الذي أنشأه الدستور المنحة . ناليم بذلك رأي والده الذي كان جمهوريا ولم
يتأخر من قبول النظام الامبراطوري استقرا لارادة الامسة و . سبيل حسب
بلاده . انتهى به الأمر في سنة ١٨٤٧ إلى أن يصدر منشورا تحت اسم السند
« المتصورون والمنحة » أسن فيه « أن الدستور المنحة لا يعزى الرق
للهي اراطي . ما أنه لا يعزى أي تقدم . سواء أ كان في سبيل الاصلاح
الانتخابي (من ناحية تقدير الاندية وانقاص الضريبة والانتخاب المباشر من
درجة أو درجتين) أم في طريق مختلف الحريات الفردية الخاصة بالصحافة أو
التعليم . أم في سبيل المسؤولية الوزارية واختصاص الخلقين . . . اني من
هؤلاء الذين كانوا يرجون في سنة ١٨٣٠ قيام الجمهورية ولكني لم أكن من
هؤلاء الذين لا يرضون إلا بالنورة من أجل الحصول على كلمة . فملتطفون كانوا
إذن يريدون أن تكون الحرية تامة لجميع الآراء . وأن تكون الملكية هي
الحكم عند الضرورة لفصل بين السلطات ومنح الحق للغالب من الاحزاب
واسناد السلطة التنفيذية له » فالحزب المتطرف كان يرى في الدستور المنحة تحقيق
كل ما يريد وما عليه إلا أن يساعد كل حزب يدعو إلى الاصلاح الانتخابي
وبنيان الخلق السياسي .

وقد اتخذ الحزب المتطرف صحيفة « لاريفورم » لسان حاله . وادارها

«لدرورلان» وهو محام فاز فوزا ساحقا في مانس أثناء انتخابات سنة ١٨٤١ ولقد حوكم أمام محكمة الجنايات لشره خطابه الانتخابي في صحيفة «كورييه ده لاسارت» حيث قال لنا خبيه : «إن الشعب قطيع من الاغنام يقوده بعض الممتازين مثلى ومثلكم . ويطلقون عليهم اسم الناجحين . . . وإذا نهض هذا الشعب ليطالب بحقوقه التي أجزاها في غيابات السجونات . وإذا هو جمع صفوفه حتى لا يسحقه الشقاء وتقضى عليه النعاسة أو دافع عن أجره الذي لا يمينه على سد حاجته الحيوية زج به في ظلام الزاوين . وإذا هو كتب على املامه «قطعة من الخبز أو الموت» كما حصل ذلك في مدينة ليون أنهالت عليه المقذوفات النارية . وانتهكت الجنود حرمت ما تبشر من هشم رفاة . ولكن الشعب هو السيد . ولقد أعمده حملة شمار الحرة بهذا الاسم أيضا . خزاء ما أذاع من دين شرعه على أسنة وماع المساواة والاخاء ان الشعب مسبح اليوم فاذا نصنع ابعثة لاما ص لنا من الاصلاح . فهو الشرط الاساسي لسكل رقي سامي . فليكن اذن كل وطني ناخباً . وليس في المقذور أن يقوم نجدد إلا إذا تمضى نحو اصلاحات صادقة صحيحة . فالحزب الذي يقر على قد امتاز على الخصوص بهذه الناحية السامية القائمة على حب الشعب امتيازاً عظيماً يفرق امتياز الاحزاب التي تخضعها ثورة بولية سنة ١٨٣٠ . فالشعب ليس له وجود في النظريات الملبسة بالانانية . — إن الشعب في تقديره يحمي يدومه «يشمه» تحت أقدامه كي يصل إلى غايته وكذلك حزب «ارو» إنه لا يهني أيضاً بالشعب . أما حزب «المشروعية» فانه يتكلم من سيادة الشعب . ولكنه الشعب يرتدى جلد الاسد» فحكم عليه أربعة أشهر وثلاثة آلاف فرنك غرامه ثم صدر حكم محكمة النقض والابرام ببراءته .

ولقد أعلنت هذه الصحيفة أنها الاسان الناطق بنوحيد جميع العناصر

الديموقراطية ولا مبدأ لها إلا تطبيق سيادة الشعب ودراسة الزراعة والصناعة والتجارة والعمل على إرضاء الطبقات العاملة . وتعليم الاهالي واحسانهم وتبيان حقوقهم . وتذكير الشعب بأن مصالحه الحقيقية تفرض عليه توحيد الصفوف . والتآخي .

أما الصيغة التي أراد «لدرورولان» أن يجمع حولها صفوف لديموقراطيين أمثال (انيس اراجو) و (لويس بلان) و (جعفر واكافنيك) و (كرميون) و « فلوكون » و « بيرلرو » الخ -- حتى ينضم اليهم الشعب فهي « مبدأ الإصلاح الانتخابي على قاعدة الاقتراع العام » وهو مبدأ قديم سبق أن قال به كافنيك و لويس بلان في هذه الصيغة : « إن الإصلاح السياسي شرط أساسي للإصلاح الاجتماعي » وهذا هو الميدان الذي يتلاقى فيه الجمهوريون والاشتراكيون لقد توارت مهمة الجمهوريين ردها من الزمن . إلى أن جاء اليوم الذي نجحت فيه جهود الخارجين على حزب المحافظين مع المعارضين للأسرة المالكة . من أجل النضال والعمل . وحشد القوات الخائفة وعموينها بعناصر جديدة من الشباب الطاهر . وفي ذلك اليوم أمد الحزب الجمهوري (هذا الحلف) القائم على سحق المبطلين والمستضعفين والهازيين بحقوق الشعب برجال عديدين ذوي أقسام وحزم وعزم وكفاية تؤهلهم عند الضرورة للقيام بالعمل الحاسم .

وفي الواقع كنت تلمس في الوجود تقليداً . بل تلمس إيماناً أو ديناً جمهورياً . هو ذلك الذي اعتنقه شباب يوليو سنة ١٨٣٠ . وهو دين استمد قوه رهيبة من حماس نظرية العواطف الروائية المتأججة في صدور الشعراء والفنانين كما استمد هذه القوة من تفجر الشهور بتقديس الشهداء الذين راحوا ضحية المصيان الاخير واحكام المحاكم أو قضوا باقي حياتهم في السجون تنفيذاً للنظام البشع

الذى أتبع في إطفاء العصيان الذى وقع في سنة ١٨٣٩ . لجميع هؤلاء الشباب
والرجال والشيوخ كانوا وهم في اجتماعاتهم السرية العجيبة التي عقدوها في مغاور
جبل سان ميشيل وغيرها يستوحون إله الرق والتقدم ويصرعون اليه أن
يسدد خطاهم في سبيل الخلاص وان يؤيدهم بروح من عنده حتى يحققوا الاخاء
والمساواة.

تحالف الاحزاب

كانت الحكومة الفرنسية قد بدأت تعطف على حرية التعليم . ولكنها
فشلت في هذا النوع من التحرير الفكرى . ولذلك فان أعداء الجمعة . الما
في ملك فخل فسدت حاشيته وتمدمت أخلاقهم . قد رأوا أن خير وسيلة
للاصلاح انما في تعديل قانون الانتخاب والدستور تعديلا يقضى قضاء مبرر
على حكومة الفرد والرشوة المتفشية في فروع الحياة الفرنسية .

لم تكن فكرة التوسع في حق الانتخاب العام حديثة . فخذ العمل بقانون
١٩ أبريل سنة ١٩٣١ قام الاحرار بمقاومته رغبة في سحق قيوده . فرجاله
حزب الاميرة المالكة القديمة قد اقترحوا تخويل هذا الحق لكل داخ
لنصاب الصربية فيداعهم في دفتر الانتخاب منذ عام وبلغ من العمر ٢٥ سنة . وقف
أيديت صحيفة « غازيتة فرنسا » وصحيفة « لافيسير » هذا الرأي . ولكن
الصحيفة الاخيرة لم تكن منتشرة . أما جريدة الصحيفة الاولى فكانت وصيفة
للمزايدة لم تلج عليها شارة من اشارات الاخلاص .

وقد كان الانتخاب العام المباشر السرى جزء من برنامج « جماعة حقوق
الانسان » وانما كان ذلك لغاية نبيلة هي استئصال الفساد . وإبعاد النائب عن
أن يكون كما قال « تيليه » : « سمسار دائرته الانتخابية . إذا حضر جلسات

المجلس فلما انتهت الجلسة هياً نفسه لاداء مهمته . وهرول
من وزارة إلى وزارة لإنجاز مطالب ناخبيه »

ولما جاء عصيان سنة ١٨٣٩ . وتكرر التأمر على حياة الملك خشي
أحرار الطبقة المتوسطة أن ينعاز الشعب إلى الفكرة الشيوعية . فنصدي
بعضهم لاقتراح تعديل انتخابي يقضى للشعب بأمل التدرج في الاشتراك في
الحكم تناديا من الشيوعية . فلم يلبح هذا الاصلاح هنا انه وسيلة من وسائل
الطهاج أو الخيال الواجبة الالهال . وإنما اعتبر واسطة تؤدي إلى توثيق عرى
الوفاق بين الشعب والطبقة العالية . ولقد جاش إذ ذاك في قلوب القادة أمل
ظامض هو أن يكون الماران على الديموقراطية وسيلة إلى ابعاد الروح القومية
من تأليف أحزاب الطبقات . وباعنا على اجتناب تضالها . ومهدأ الامة
بأسرها سبيل الرقي السياسى والرقي الاجتماعى .

فالطهاج الذى نظمته الحرس الوطنى إبان عصيان (سنة ١٨٣٩ — سنة ١٨٤٠)
في سبيل الاصلاح الانتخابى . وفوز لدرو رولان في سنة ١٨٤١ كانا مظهرآ
من مظاهر المقاومة لتلك الفكرة القذرة التى حلت في مجلس النواب وأدت
إلى ازدواج حكم الفرد بالرشوة فوق المقاعد النيابية المقدسة .

كان جنزو والملك لويس فيليب هادئين أمام حملات الممارضة القاسية . فلما متهما
لثما حملات عقيمة جاءت في وقت غير ملائم . ولقد تصورآ أن احترام
الاستور لا يكون إلا في انحياز أغلبية المجلس لهما . ومما لاشك فيه أن لويس
فيليب بعد حكم استمر عشر سنوات قضاها في العسر والضنار قد وصل إلى
أن يحكم بنفسه وبواسطة وزيره جنزو . حكما يرى معه أنه لم يرتكب ظلماً
يستحق عليه التعنيف . ولكن هذا الملك الذى أفلت من أيدي عشرة من
القتلة . وفل غارب العصيانات العديدة . وعرف كيف يستخدم وبدل هؤلاء

الذين ظفروا باحلاله محل شارل العاشر عقب ثورة بوليه سنة ١٨٣٠ . قد خال نفسه معصوما من الخطأ السياسى .

لم يقلق بال الملك أمام هجمات الصحافة الفرنسية وسبها إياه . بل كان مطمئنا كل الاطمئنان . وذلك لانه ما كان يقرأ غير صحيفة التيمس الانجليزية وكان واثقا من أعجاب أوروبا به . ويقدر ان السلام العام الاوروبى انما جاء غرس يده . لذلك أبى أن يفكر فى تغيير طريقة حكمه وفى تأليف وزارته . حتى لقد صرح لمرئيه بعد أن صارحه بخطر الموقف الذى سببه وزارته وسياسة حكمه قائلا : « إنك تريد حرمانى من جيزو . ولكن هذا الحرمان ليس إلا انزعاسانى من حلقى »

قاوم الملك كل نصيحة . وأبى الاشتراك فى أى عمل يقلق راحته . حتى ما كان منه متعلقاً بداخلية أسرته . ولذلك ساد الملأط خلال سنة ١٨٤٦ ذلك الخطر الذى شعر الناس بأنه يحيق بالملك من جراء الضغط على وزيره والحنق على نظام حكومى مشعوم . ولكن رجال الملأط عجزوا عن أن يقيسوا مسافة الخلف بين الشعب والملك مع أنها كانت تتسع طولا وعمقا من يوم لآخر وقصروا عن أن يدركوا أن فرنسا الادبية والسياسية أصبحت معزلة عن حياة حكمها غير مكترثة على الاطلاق بمرشها ولا آبهة بمستقبله لما فى أعمال الحكومة والوزار من افتئات على أقدم حقوقها

ومن هنا يتضح الاثر النفسى الذى يحدثه الاشتراك فى ثورة يقضى عليها نهائياً بالفشل كما يتضح أثر طول الانتظار فى الجهات . فمال أثر الاشتراك فى ثورة خاسرة يعقبها تعاون مع العدو وساهمة فى توطيد أقدامه . وعمل على تنفيذ برنامج هذا العدو دهرأ طويلا كما كان شأن سعد ؟

تغلب الطبيعة على الوسط

هو أننا نستطيع أن نفرض جدلاً أن وسط امرأين كان من أرق أو ساطع خلق الله . وأن سمداً لم يرم . أحضان الانجليز طوال جبل من لزم تكون فيه بشكل خاص . ونساء ماذا كانت تكون . الآثار المترتبة على جبلته . وغريزه الجوهرية التي انتقلت اليه من والده العمدة ؟ لقد أثبتنا علماً بما تقدم أن هذه الغريزة لا بد وأن تسكشف في يوم ما إذا ما أخرج الإنسان أو استثير أو أطلقت يده بعد حجر وأمر . وهنأرى أن التخليل أفضل في النفس وأفضل في إقناعها بالحقيقة

تيمبير

قال لما المسيو هنري هـ سميح عضو الاكاديمية الفرنسية في كتابه « أثينا وروما وباريس » (ص ٤٠٠ وما تلاها طبعة سنة ١٨٧٩) : « إن الخلف يصدر احكاماً نهائية . ولقد برأت عدالة الاجيال الامبراطور أغسطس الذي سما بالدم وفقت على تيمبير الذي سقط بالدم . ولا قبل للاماجيب المتزايدة عن أممنا العبريات وأقواها حجة على أن تمقض حكمها . وليس المسيو « بوليه » بقادر على ذلك وهو الذي أراد بدراسته تيمبير أن يرد الاعتبار السام إلى خليفة أغسطس ورائده الطريقة التي اتبعها مونيسكيو ، وهو يقارن بين تيمبير ولويس الحادي عشر حتى ختم المقالة لمصلحة رجل روما ولكن « بوليه » قد أيد رغم ذلك نظرية جذابة . هي « أن القضاء والقدر الذي أنقل كاهل أبطال المأساة الاغريقية القديمة قد أبهظ منكب تيمبير إبهاظاً أشد . وهذا القضاء والقدر هو التركة التي خلفها أغسطس » وبعد أن شرح المسيو « بوليه » أخطار السلطة المطلقة التي تحيق بمن ينشئونها طفق يدال على صحة رأيه في برهان فاقت فصاحته قوة

اقناعه . فقد ذك تدير طفلاً وشيخاً . وكهلاً ورجلاً . وصورة امامته او فقه آ
وقائداً للجوش وذليلاً مقاماً لسلطان أغسطس . وقصلاً واثراً لاطور آ .
وقاسياً في أحكامه بعد تنويجه . وظالماً مجنوناً ووحشاً ضارياً قبل موته .
ولقد تتبعه في أسبانيا وجرمانيا وفي رودس وبرنونيا وفي القوروم وفي ق . حمل
بالان في حدائق موسين ومغاور جزيرة كبريه . وفي كل مكان . وفي كل زمان
وفي كل مناسبة ظهر فيها تيبير فريسة لسلطانه .

« ومن الواجب أن نناهض نظريات المسمي بولييه بالسلطة التي تقدمها اذا
كتابه . انه يقول : « لقياس الاثر المترتب على السلطة المطلقة في رجل مفروض
فيه ان السلطة انشأته أميراً وهو با ذا ذكاء واسم . حازماً مثقفاً . مستعداً
من جنس عظيم سما تكوينه العقلي والبدني . ويخلق بخلق فارد . وامتناع كل
صحة لا يتطرق اليها المضمضع وكان جندياً اسلاً وقائداً ماهراً وادارياً حكماً
تحيط به حاشية طيمة . وتؤيده نصائح أمهر الامهات وأمكرهن . ونشد الحظوظ
أزره في أغلب الاحايين . يندفع بلا جهد نحو العظمة . ونبت حياته الاولى
بجانب السلطة المبالغة . ثم زاو لها عملياً . ثم عدل عنها . ثم استولى عليها في سن
المنضوج وانتهى به الامر وهو في سن السادسة والخمسين إلى أن ساد العالم .
فاذا كان هذا الرجل قد فسد شيئاً فشيئاً . وخار رويداً رويداً . ثم تحول حتى
أصبح في يوم من الايام ملموناً من الانسانية . وموضع كراهتها . فان المثل
يكون حاسماً والبرهان التفصيلي يكون كاملاً » نعم ان البرهان كامل .
ولكن المثل ليس حاسماً . إذ يمكننا في سهولة أن نقابل مثل تيبير بمثل يناقضه
تماماً . وهو مثل سلفه أغسطس . فاذا كان حقاً أن تيبير قد فسد تدريجياً
وتحول حتى أصبح ملموناً من الانسانية وموضع كراهتها باستخدامه السلطان .
المطلق فكيف يكون « اكتافيوس » بمزاولة هذا السلطان المطلق نفسه قد

صاح تدرجياً ونحول حتى أصبح أباً لوطن ونموذج الملوكة ؟ فهل السلطة المطلقة كذلك الينبوع الساحر الذي تحدثت عنه الأقدمين الفارسية ومن شأنه أن يهب الطيبة الأبدية أو المرض العضال تبعاً للاستحمام فيه عند شروق الشمس أو غروبها ؟

ومع ذلك فهل تمييز كان قبل تنويعه الرجل الكامل الذي زعمه هذا المبرهان ؟ إن التاريخ ينكر ذلك ، أما إن تمييز كان على وسعه من الذكاء . وعلى تكوين حسن عقلا وجسدا . وشجاعا وقائداً ماهراً فهذا ما سلم به . ولكن هذه الصفات لا تستلزم أبداً أن تقتن بقيمة أدبية . ولا بكفاءة أساسية لحكم العالم . لقد انحدر تمييز من جنس عظيم . ولكن أسرة آل كلرد قد اشتملت على الابن الرحيم ، والشیطان الرحيم . فمنهم من أثار حماسة رومان بعد أن دحرهم بيروس . ومن طرد جنود فرطاجنة من صقلية . كما كان منهم الوحش الذي قطع الصلاة بين مجلس الشيوخ والشعب . ومن حاول استعباد إيطاليا . ومن فقد أسطوله . ومن نفى شيشيرون وأجرى الدماء في شوارع روما . فتمييز الذي كان إلهه الشيطان الرحيم كان في وسعه أن يقلد في بي سافه ، فهل كان اداريا ماهراً ؟ من السهل أن نقيم الدليل على العكس إذا نحن أثبتنا أن يده لم تتدخل في جميع الإصلاحات والتجديدات التي تمت أيام حكمه . ولا في التوسع في تطبيق قانون الاعتداء على مسند الملك وجعله شاملا الأحوال السياسية بعد أن كان قاصراً على الشؤون الدينية الخ . الخ . وإنما هي اقتراحات ليفيا وميجان التي أدت الى كل ذلك . بل هي اقتراحات ليفيا على الخصوص تلك المرأة التي كانت بمثابة كاترين ده ميديسيس الرومانية . بل أنها بنت اللورانتية . وكان لها أكبر الأثر في نفس أغسطس و تيمير . واستمر نفوذها كذلك في الحكم الامبراطوري بعد أن أسست الامبراطورية . ان ليفيا كانت الشيء ان المؤسس

للمبدأ القيصري . والثورة الساحقة الماحقة للنظم والحريات الجمهورية .

فاذا كان تدير قد أظهر بعض الخلال الحميدة في أول فترة من حياته فلان الخوف من أغسطس وليفيا قد كبح جماحه . وليكنه عند ما شمر بالحرية أطلق الننان رذائله ونقائمه التي اعتقلت طويلا . والحرية لم تأت إليه إلا في آخر أيام حياته .

فعندما خلف أغسطس لم يتغير الحال إذا التغير انحصر استبدال سيد بسيد آخر . فقد سل تحكم ليفيا المتمسكة بحل سبادة أغسطس . وإذن فتغير لم يكن هرا . ولم يحكم بنفسه إلا بعد موت أمه . وبعد القصاص من عشيقها الفادر . ولكن آخر أيام حكمه . وهي الأيام التي امتازت بأوراق الدماء اهراقا فظيما . ولطخت بأفجع عار . كانت أيام حكمه انخاص .

فالرغم الجنونية . وأحوال الفعش في جزيرة كبريه . هي من فعاها انخاص ولا دخل لاي كان فيها .

فهذا الرجل الحسود الحقود الجبان المنافق المتردد . الوضع في نزقه المنجرد من القوة بقدر تجرده من الفضائل الادبية . هذا الكلب الذي خضع لأغسطس في ندالة . وتحمل في أناة وصبر وذلة فحش زوجه . وقسوة الامبراطور والنفي الى رودس ظاهرا . ورصد يمينه . يمين القائد على خدمة امبراطور لو شرفه بالاختلاط بجورليا . وكان في الوقت نفسه يقسو عليه . وهذا الظالم الرعيد الوحش الذي كان يكبح جماح غلظته ووحشيته . وشهواته الغريزية وكثيرا ما كان يشعر بنير ليفيا وسيجان قد أسرع بعد موتهما الى الاندفاع في هاهية من أحوال الجرائم والفحش تاركا الحكومة . نابذا مجلس الشيوخ الخالي من نصف أعضائه . لاهيا عن تعيين قواد للجيش المتطوعة . وحكام للاقليم . ساهيا

عن الدافع عن أرمينيا ضد البارث . وعن ميزيا ضد الداس . « الحول ضد
- الحرمان هذا الوحش المتأنق في بربريته كان يرغم الجلادين على استلاب
عفاف المذارى قبل اعدامهم . واذا انتحروا سجين حتى لا يماسى وسائل
التعذيب الامراطورية المبتكرة صاح : « لقد فرمى كاسا لبربرية » فهل هذا
الرجل يبرر قول المسبو « بوليه » : « أن تدير لم يكن وحشا . ان تدير كان رجلا
مثلنا . وموهوباً كثر منا » ؟

ان عظماء المجرمين يستطيعون أن يبرئوا أنفسهم في سهولة كبيرة اذا هم
استخدموا كلمة أنقال الماضى التى تذهب جفاء وفي لمح البصر أمام كلمة عقل .
واذا نحن تلونا خاتمة كتاب تيدير . لوجب علينا توأ أن نذكر زابنى فسمبازيان :
تيتوس . ودومينيبيان . اللذين عاشا زماناً واحداً ورباهما أستاذ واحد وكان
كلاهما الى عهد ما شرأ أعداء ليحكم شعباً واحداً . ومع ذلك فقد استحق كل منهما
أن يلقب بلقب مختلف عن لقب أخيه . فتيتوس قد لقب « بهجة النوع الانسانى »
وأما دومينيوس فلقب « طار الانسانية وموضع مقتها »

فتركة أغسطس ليست هى التى جعلت من تيدير ظالماً ممتوتاً . وإنما طبيعته
الوضيعة الحقود القاسية . حتى لقد قال فيه تاسيت قبل أن يعرف انقال الماضى
« وفى النهاية قد تردى فى الجريمة والعار معاً فى وقت واحد عندما زاول طبيعته فى
حرية » وأبعدت عنه وسائل الجريمة والعار »

فالخرقة إذا ما أطلق عنانها أو استثيرت وأرتفع الرمال الزمنى من فوقها .
تجلت بمظهرها الحقيقى . واتضح جوهر الجنس فى عملها . أما مفعول الوسط .
أما التربية فهى كما قدمنا « وسيلة صناعية فى مبدئها . تخلق فيها طبيعة
ثانية تلوح فى نظرنا أنها امتصت الجوهر . وجبته . ولكنها لا تصل إلى هذه
القوة فى أغلب الاحيان . فكم من رجال تحلوا بهذه التربية ولكنها لم تجتث

غير نراهم . فهي أذرى ليست إلا دهاناً لما طابها ر فتينا كعند أول صدمة . لظهور الطبيعة
الاصليّة بنهمها وروحشيتها . أو قناعتها وفضائلها . وانقد يدهش الانسان
أحياناً ما أن يرى شعوباً بلغت أقصى حد في المدنية والوداعة والانسانية
والخير ابان سيادة الام ثم هي لا تلبث أن تعقب عقب اعلان الحرب أو عند
اصطدام مقامها بحقوق الضعفاء وحوشاً كاشرة . تهبط إلى آحط دركات القسوة
والوحشية . ولكنه إذا فكر ملياً وعلم أن الحرب ما هي الا عود لمبدأ
الخليقة . وسيادة المحمجة والوحشية . وما وظيفة هذه الحالة إلا ان تبعث تلك
الطبيعة البشرية المتلاعبة معها . والسابقة على أى ثقافة ونحرجها من إمكانها في
جماستها . ر بطولتها . وعبادتها للقوة والمطامع الاشعبية ولذلك قد حن قول
كارل ليل : « ليست المدنية إلا غلافاً لستر طبيعة الانسان وهي تحترق بنار جهنمية »
وهكذا كانت حال سعد . فهو يهدأ ويستسلم إذا ما عجز . ويثور إذا ما اشتد
وقوى . . أما إذا أغضب وهو في قوة فانه كان الليث يعتدى . ولكن على العزل
والضعفاء واستسلامه واضح في مفاوضته . ونورته ظاهرة في معاملته معارضيه
فمنزته هي التي تتحرك رغم الطبائع المكتسبة . ولا تتحرك إلا إذا أهم وتحرر
من أى قيد . فشعوره بالحرية أطلق العنان لذائله ونقاأصبه التي اعتقلت طوبلاً
والحرية لم تأت اليه إلا في آخر أيامه التي هوى فيها بالامه الى درك من الاستهانة
بالحقوق وامتهان الكرامة ولا دخل لا يقال ماضي الامة في كل ذلك .

نيرون

إنك إن قلبت أى صحيفة من تاريخ نيرون تدفق منها الدم حتى خنقك . فلا
تعهد تبصر إلا أحرار . ولا تسمع إلا استغاثة . ولا تسمع إلا نداءً ولا تحس إلا
جهداً وتحجراً . ولا تذكر إلا كلمة لامنيه : « والآن التاريخ لأطول محضردون
فيه تعذيب الانسانية »

ولنبرر أعمال هذا الخليع والممثل المضحك الوضيع لدى رجل فوق رأسه
تاج روما قد اتجأ إلى رخون إلى السلطة التي أسندوها إلى أفلاطون حيث
قالوا « ان الجرائم التي امتارت بالاستبداد والوحشية لا يتكبرها رجال موت
خوف العقول بل تنصب على نفوس قوية كريمة أفسدها التربة . » فهم اذك
يستندون على الناحية الطبيعية لابن « اجريين » . وهي طبيعة أفسدها تربية
عميقة ثم يسيرون إلى ما تحته السلطة المطلقة من عبي ذهول عن الصواب -
وينكرون سبب وجود الدولة ذلك المعبود الجامد الذي ربد التضحية عن
طريق قيام الجائز في كل ناحية . ثم ينتهي بهم الأس إلى أن يلقوا بنبوءة حراسهم
نيرون على مستشاريه . مثلهم في ذلك مثل خصوم أغسطس وحساده الذين
يستندون كريات أعماله إلى انتكارات وزرائه . وقد استهزأ المؤرخون
أيضاً بـ « كاليغولا » الذي يرضى قلبه وضمه لتأييد رجل القضاء ، القدر الذي يهف
كامله . وهذه الكلمة هي « لاند أنا واجريين لا وحشاً »

لقد دلت نيرون بأعماله على صحة نبوءة والده . ولكن هذا الرجل لم يكن
حقاً في النبوءة . لأنه إذا كانت أجريين زوجه بنت جرمانيكوس هي التي
قال عنها ما في كلمة من ماني . فليس هناك من سبب يدعو إلى أن يكون نيرون
هو ابن أجريين دون غيرها . ومع ذلك فإذا كانت النبوءة فضيلة جرمانيكوس
قد ولدت الذيلة . ذلة أجريين . فلماذا لا تلد الذيلة فضيلة ؟

أما فيما يتعلق بتربية نيرون فقد وجب أن نتحرى الحقيقة حتى نعلم ما إذا
كانت قد ساءت بالدرج التي أشير إليها ولدت للمؤرخين وصفها أم لا ؟

اذ نيرون الذي انتزع منه كاليغولا ميراث والده قد بقي إلى سن الماشرة
في حضانه عمته « ليبديا » دون أن يعهد بأمره إلى مرب أو أستاذ غير سلاق
ورعاه ولقد عوده بعد « ليبديا » حياة اللواخير وملذات منازل
الوحوش في المسارح حتى انطبعت تأثيرات الطفولة في أعماقه انطباعاً قاسياً .
إذ احتفظ الامبراطور نيرون بأذواق ابن أجريين الصغير .

فالمائدة ومسرح الوحوش بقيا أداة لهواه ومسرته. واستمر خلفه الدنيء أبعد مطمح وأقصى مطمح. ولكن هذه التربية التي تعلقت بالرياح والمصادفات قد انتهت بزواج أجريبين من كلود. وفي سن الحادية عشرة كان نيرون استناد جديد هو الفيلسوف سينيكا.

فهل كان هناك أ كفاً من سينيكا تهذيب قيصر الشاب وتكوينه وإعداد له ممارسة السياسة ؟ وهل كان محققاً ذلك الذي قال إن تربية طفل على يد هذا الفيلسوف كانت تربية فاسدة مشنومة ؟ إن معلومات نيرون كانت تنهض دليلاً على عكس ذلك . فقد كان على أتم تثقيف وأكمل تعليم . مولعاً بالأنوار . مفرماً بالآداب . حتى رأيناه في الخامسة عشرة يرتدى ثوب الحمامة ويترافع باللاتينية عن البولونيين . وباليونانية عن سكان رودس وترواده .

وإذا نحن صدقنا تقليداً من التقاليد الرومانية علمنا أن الرومانيين قد أسفوا على نيرون وهم يذكرون أمداً طويلاً لانعمة الخمسة الأعوام الأولى من حكمه حيث ساد الهدوء . وسمت العظمة . ولكن هذا التقليد لا يشرف الرومانيين فإذا كان الامبراطور الجديد قد وعد بأن يسلك سنة أغسطس ويحتذيه مثلاً في أعماله . وإذا كان قد رفع عن عواتقهم شيئاً من الضرائب . وسن قوانين تحتم الاقتصاد واجتناب الترف . وإذا كان قد عاون أعضاء مجلس الشيوخ الفقراء بماله الخاص ونفذ مشروعات عظيمة في المدينة . وإذا كان قد أمضى حكم اعدام وهو يقول : « لقد كنت أريد أن لأعرف القراءة والكتابة » فإن كل ذلك لا يمكن إنكاره . ولكن يجب أن لا ننسى أن أول عمل من أعمال حكمه كان قتل سيلانوس ولا جريرة له إلا أنه من أقارب « كلود » وبمد ذلك بأقل من عشرة أشهر أمر بأن يتجرع بريتانيكوس السم أمامه . وهو شقيق

زوجه وابن والده بالتبني وصهر والدته . ورفقه في الطفولة . وقبل أن تنتهي
الخمس السنوات الاولى من حكمه كان قد أعدم أمه أجريبين . فهذه السنوات
الخمس قد بدأت بالقتل ونهت باستباحة دم الام . وهذا هو مجد هذه الفترة
لم يكن قتل أجريبين بول خطوة قطعها نيرون في سبيل الاجرام . ولكنها
كانت أجسم خطوة وأبشعها . فنذ مأساة « ناي » لم يعرف نيرون أى قانون
ولم يعترف بأى قانون ولم يخضع لأى احساس انساني . ويلوح انه ذعر من هول
هذا الاتيم الغالب . فإراد أن يحو ذكره بارتكاب آثام جديدة لتذهب ذكرى
أحداها في طيات ذكرى الأخرى . ففصل يده التي لونها دماء والدته في بحر
مسيحور من الدماء . وهكذا بدأت سلسلة فواجع نيرون . وهى مأساة قامت على
قاعدة : « نى اقتل فاذا أحكم » . ولقد أعدم اربعمائة عبد برى في يوم واحد .
وسم يروس . وذبح سيلا وبوتوس . وخنق البائسة كلوديا في حمام ساخن
بعد أن طلقها واتهمها بالزنا . والتي الى الوحوش قطعاً نأمن المسيحيين . واستخدم
ثلاثة آلاف شهيد . كفنوا أحياء في ثغافات دهنية في إضاءة شرفته المسرحية .
وعذب الممثلة المضحكة ايمكارليس حتى ماتت . وطوح برأس لاتيئوس . وانتحر
بيزون وسينيكا بقطعوريد . وقطع عنق سوربيوس . وسولبيسيوس . واسبر
وكنتيانوس . وسيفينوس . وسنديون . أما الشاعر لو كان والقنصل فستينوس
فقد قطعت أيديهما وأرجلهما وترك الدم ينزف الى أن ماتا . وقتلت بوبيا
وهى حامل بلسكرة من قدم . وقتل سيلاوس . وانتحر أنزيوس .
وبيت اوستوربوس بيده الخنجر في صدره نفسه . وأغرق سيربالوس وكوسمينوس
وميل . ومات تراسيانوس وبترونيوس في الحمام والشرابين مقطوعة تتدفق منها
الدماء . وأعدم انطونيوس . وكذلك بولس وصاب بطرس . وأغمد كويولون
سيفه في أعماق ذاته . ومات الأخان سكريبونوس معاً . وقتل كرسوس . وفي

النهاية جاء دور نيرون نفسه . فقد خانته أفعاله واصطفاه وطاردوه كالطير الجارح حتى لعب وانكس وحرم الماء والغذاء . ولما فقد شجاعته أمام الموت سأل بعضهم أن يقتل نفسه كي يتشجع ويقدم على الانتحار وهو الذي رأى على أعينه كيف نفذت أحكام الإعدام التي أصدرها . ثم قضى الأمر وبیت النمر في صدره بمعاوية ممنوعة « ايها فروديت

نقد كان نيرون جديراً بموته أبشع من هذا الانتحار الذي أرغم عليه . انه كان خليقاً بأن يقاسى العذاب والعار الذي قضى به عليه مجلس شيوخ خليفته الامبراطور « جلبا »

ولكن موته جاءت عنوان حياته . فقد قضى كما عاش . مجرداً من الشجاعة ومن الارادة . بيد ان من الواجب أن نقر بان نيرون كان في كل ذلك خاضعاً لسلطان خارجي دون سلطان نفسه إلا أن هذا لا ينقص من بشاعة أعماله إن نيرون . هذا الحاكم المستبد المطلق . لم يعمل إرادته إلا نادراً . فقد كان خادماً مطاعاً للجيموشوات الجميع . وليس هو الذي أنشأ القاعدة القائلة « القتل هو الحكم » ولكنه طبق هذه القاعدة دائماً أبداً في خش لا يبرح للضمير وغزاً ولا تأنيباً ، وماذا بهم والضعف أخش الاغلاط التي يرتكبها زعيم أو ملك . فسواء ارتكب نيرون جرائمه لحساب نفسه أو بتأثير أساتذته ومستشاريه فانها ارتكبت باسمه وهو المسئول عنها أمام الخلف المنتقم

هكذا قال « هنري هوسيه » في كتابه « أتينا وروما وباريس » عن نيرون (ص ٢٠٧ وما بعدها) وهذا أقل ما يجب أن يقال في سمد . مادونا لانيج في كل صحيفة من صحف تاريخه دم أفراد أو ثن أفراد . وانما نجد دم أمة أراقه . وحياة أمة أزهاها . وثن أمة ملأ الأجواء . وأفسد الهواء . وقد كان أقدر الناس على اجتذاب العمل على كل ذلك منذ الساعة الأولى لظلمته

لقد أخذ سعد من حمدة . وتربى في وسط الكتاب ووسط القرية خلال
 مهدي صمد واهما عيل . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره اندمج في وسط
 الأزهر . ومهما كانت مقدرة الشيخ المهدي العباسي . ومهما كان سلطان الشيخ
 أبو النعنا المرقاوي . ومهما كان سحر الشيخ محمد عبده . فانهم جميعاً ما كانوا
 يستطيعون أن يغيروا غرائز صمد . واقدوقفوا أمامها طاجين كاجيز سبينيك
 الفيلسوف عن تغيير غرائز نبيرون فهذا شب حلاقا يقص الأوردة والشراب
 وينزع الأرواح . ويجز الرقاب . ويضمن أن القتل هو الحكم حتى انتهى به الأمر
 إلى أن رقص رقصة المذبوح . وذلك شب حمدة « وفقى » . بحارب سيف ذي
 حدين يقبض على سنه فيدهم يده ولا يصيب غريمه . يفتى الفتوة بهرجا زيفا .
 ويلبس الحق بالباطل تضليلاً وغاية . ويترجم عمله عن أن الحكم هو التخريب
 والهدم . والسيادة هي استغلال النفوذ والقضاء الممارضين تحت الردم . حتى
 انتهى أمره إلى أن أصبح وجوده هو اوباطلا . وأمسى الزعيم كذباً باعاطلاو معطلا
 يجبراً البعض على أن يمشى إلى الناشئة على غير استحياء . ويسمى اليهم على خشن
 لاليعنهم وأما ليخدعهم بأن صمد كان غر مصر في ناشئته الاولى . وفي عهد
 كرومر . وفي أيام مصطفى كامل . وقبل الحرب . وإبان الحرب وبعدها . كبرت كيلة
 تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا . فما كان سعد في ناشئته الاولى إلا
 سهما رشقه العربايون في قواد مصر . وما كان بعد ذلك إلا شوما على مصر .
 رأيه منكود . وفكره مردود . وحجته على هامة مصر كالسيف . وبرهانه على
 الامة حيف . كان للاحتلال نصيراً . وبأعلان الحياة ناصحاً ومشيراً . ولاستقلال
 مصر نكيراً . ولحريتها ساحقاً . ولسكرامتها ماحقاً . وإذا كان قد قضى في
 القضاء دهرأ طويلاً بعيداً عن أن يظهر في ثوبه الخلق . وعادات النفاق والملق .

فلأن للقضاء كبراً خاصاً. لارقابة فيه إلا الذات على الذات . وإلا للضمير على الضمير .

إن سمدالم يقتل شيوخا ولا نوابا . ولم يرد أصدقاء ولا أحبابا . ولم يهدم أنصاراً ولا أعداء . ولم يكفن ثلاثة آلاف مصري بلفافات من الدهن ليضئ بهم مسرحه . أو يستصبح بهم في ليله حتى يزداد سروره ومرحه . ذلك بأنه كان أجنبى من نيرون . ومن كان أجنبى من نيرون يستجى من أن يقتل الناس فرادى بالسلاح ويستجى من أن يقابل عنه وهالاتفاق مع أرلندا والهنود والكاليين . وانما هو سمه أن يقتل أمة بالورود ورياحين وبالنفود دون السكين . فقد نثر الورود على الامة حتى خنقها . وكفنها بلفافات من ورق البنكنوت الذى تبرعت به في سبيل انقاذها . وأضرم النار فيها لتضيء السبيل أمام الانجليز . ويحتاج كل عقبة في سبيلهم حتى تهتدى خطاهم الى تحقيق آمالهم . وتسرع في تنفيذ مشيئاتهم .

ولكن سمداً إذا امتاز على نيرون بأنه خلق أمة بسحر ضلاله . وإذا اختلف عنه بنهومة وسائل وحشية . وإذا فاقه في حبه وفقدان شجاعته وانعدام ارادته . فقد اجتمع معه في أنه كان متأثراً بسلطان غير سلطانه . وضمير غير ضميره . وارادة غير ارادته .

لقد دفعه صهره مصطفى فهمى وهو على رأس لجنة تأسيس الجامعة الى أن يتركها حتى تهدم فتحتى ليكون وزيراً ودفعه دنلوب الى مطاردة العلم حتى يستحق . وإلى مازلة اللغة العربية حتى تحقق . وبذلك حال دون انتشار العلم وحصر المتعلمين في دائرة ضيقة يمكن اغواءهم بالوظائف واضرام حمرة المطامع في صدورهم مع أن أمة محنته يجب أن يخرج شبابها ورجالها جميعاً على وجودهم حتى يكون لهم وجود وكيان . ثم استفزه رشدى وعدلى فيما بهد ليكون زعيماً .

واقناده الانجليزية النهاية حاكما بأمره.

لقد خلق سعد زعما بهدم . فخطم المهنوى بكافة فروع . ففي أيامه بدأ تصاغط الارادات حتى سقطت : تهم الخلق حتى اتهم . وتراخت الفيرة حتى انعدمت . وباء الاستقلال بالخسران حتى أمسى هباء . وقديما بدأ وزارته في الحقانية بهدم الحرية عندما أيد تنفيذ قانون المطبوعات سنة ١٩٠٩ في شدة وقسوة . ووضع قوانين الاتفاقات الجنائية في سنة ١٩١٠ الخ وفي عهد زمامته احتفل بدفن الحرية تحت ستر حرية المظاهرات . وبدفن الضمير بسطر الرقابة على القضاء . فهو المسؤول عن كل ذلك أولا وأخيرا أمام الخلف المنتقم . فهل يصح لنا أن نقول بعدئذ أن سعداً كان الرجل السياسي والوطني ؟

ماذا كان سعد ؟

لا يمكننا أن نمثل سعداً إلا هيروسترات . فكلاهما جن بالشهرة دون العظمة . فنذ ٢٢٩٥ سنة ارتكب هيروسترات جريمة من أفظع الجرائم هي أضرام النار عمداً في معبد « ديانا » الالهة اليونانية بأيفيز . فمن كان هيروسترات ؟ ولم أضرم النار في هذا المعبد الاثرى العظيم ؟

يقول المؤرخ وثاق روح الاسطورة أن هيروسترات كان عبداً أو اجيرا أو ممتقاً أو رجلاً فامضاً حامل الذكر . نهش نفسه التعطش القاسي للشهوة ولما أعينته الحيلة ولم يستظم أن يكشف عن وجوده ما اسدل عليه من حجب الظلام وضما من كده وجهوده المتواصلة . أخذ يتطور من رغبة إلى رغبة . ومن أمل إلى أمل . ثم من خيبة إلى خيبة . ومن يأس إلى يأس حتى استولى عليه جنون الكبرياء وذهول الثورة في سبيل تحقيق المظلم

لقد وقف هيروسترات إلى جانب المعبد وأخذ يناجى نفسه : وينهش

شكواه . ويذكر آلامه . ويشير آماله الخائبة . وأمانيه الفشيلة . ويخوض مقاماته الحاقدة . ثم أنشأ يفكر في أى عمل . وأى منهج . وأى مسلك . وأى جنود يمكنه من تحقيق مقامه وإحجاز شهوته . وإذاعه شهرته . وبينما هو كذلك استوفقت أنظاره عظمة المعبد وأطاشته روعته . ثم استغواه الشيطان وصاح وأزمه الكلب ترعى عقله كالمألوق : « لاربطن اهمنى بحريق معبد ديانا » . وقد كان ذلك والناس يتربعون مع الكهنة بمدح هذه المعبودة . ويرتلون آيات عظمتها ومجدها وإحسانها .

ولما جاء الليل وخرج الناس من المعبد ينسلون . كشف هيرو سترات عن خبيثته نفسه . وانزلق تحت جناح الظلام إلى بيت التقوى والاح يصبت ويبدد المشعل . وسرطان ماغشى الدخان المعبد . وزعجرت عواصف النيران وأخذت ألسنتها تمثت في كل مكان . فكان كل شيء طعاما بشماتها . وتداعت العمدة وخرت . وتساقطت السقوف فوق أنقاض الحوائط . ونمت الجريمة . ولم يبق داخل المعبد غير الذكري . ولم يظهر من الخارج غير أكوام وأطلال من الركام . ووقفت أجواق القسوس في يأس وحزن ترنل أناشيد اللعنة وهي تبكي المعبد . وطقق المتعبدون يكون لله أمر الانتقام من المجرم على فعلته الشنعاء .

ولسك انبوليس التي القبض على المجرم دون أن يعالج فراراً

لقد قام مهمته . وماذا مهمه من الحياة . وقد أصبح خالداً .

وعندئذ اجتمع مجلس الولايات الايونيونية . وعذب هيرو سترات حتى

يفصح عن بواعث إثمه

فأجاب هيرو سترات في كبرياء وعجرفة . انه اقترف جنايته حتى يبقى أبداً الدهر ذائع الصيت والشهرة فحكم بالاعدام على المجرم الانيم . وقبل التنفيذ تلى عليه المرسوم الذى أصدره البرلمان (الدييت) قاضياً بحكم الاعدام على من

يذكر اسمهم هير وسترات اللعين أو يشير اليه . فبم أجاب على منطوق قضائه .
« آوى نشيد أعلن به فاحش خلوده ؟ »

أقد حكم بالاعدام على المجرم ولـكنه لم يندم . بل فآخر بجرمه العظيم .
ويأبى بأمة الشنيع . ونوسم أمام قضائه أن الزمن سيضرب حكمهم بهيف المظان .
وجعل يقول : « أقد العظيم اسمي الآن بحروف من نار على خرابات معبد ديانا .
وستمضى القرون الطويلة وايقز الجميلة فاعاصفهما . وساحل بلقما مهجوراً آمنبوذاً
ودياناتهم على وجهها في كل مكان خارج معبدها . وسأكون خلال هذا الزمن
حلاك الشهير الذي ارتقم اسمه فوق الاسماء وارسم بحروف من نار في كبد
السما ليمير الاكوان والاجواء . وستبقى ذكرى هير وسترات طالما بقيت ذكرى
معبد « ايفيز » وذكري « الآلهة ديانا » وذكري أرض الاغريق القديمة

وهكذا كانت حال سميد . فالمؤرخ وائق كل « لفة » بأنه لم يكن إلا
آتين صعدة تولى العمدة في عهد الاستبداد . ثم نخرج من الازهر أيام
انحطاطه العلمي فهو اذن نشأ فامضيا حامل الذكر . ولكن السحارة من الشيخ
ابراهيم زغال قد جعل فيه نوما من الطموح الوحشي تكبح جراحة قسوة الجبن
الذي أثقل ماضيه . وقد أضرم نار هذا الطموح الكسير الحزين اختلاطه
بالعرايين الذين لم يعرفوا الثورة للفكرة وانما للوظيفة والمنصب فتش هذه
النفوس الجبارة الطوارة تعاضل للشهرة فاسق متشرد هربيد هدام فلم يستطع سميد
أن يرفع عن وجوده ما أنسد عليه من سجوف سوداء غمام كبد وجهوده
المتواصلة . وعندئذ أخذ يتطور من رغبة تتحقق ثم تخيب . ومن أمل يستطع
ثم يزور ويغيب ولما جاء دور الجمعية التشرعية بمعد ما يشبه الاقالة من الوزرة .
حقق ينتقل من خيبة إلى خيبة ومن يأس إلى يأس إلى أن دفعه عدلى ورشدى
إلى قيادة الثورة وهو غير أهل لها وماجز بحكم الزمن وعلمه وتجاربه عن ادارتها

غأجاءه جنون الكبرياء والعظمة وذهول الاهتياج في سبيل تحقيق المظلم .
 لقد وقف سمد إلى جانب مهر وجمل يناجى نفسه وبثها شكوها .
 ويشير ذكرياتها بلهاها . ويردد آلامها ومناها . فيحرك الشجن خواطر أيام
 الحزن . وبؤجج الحزن نيران الاحن . فتخبو مظامعه الحانقة وتخونه . وتعلو
 السكابة وجهه . والغضب ينفجر من عينيه . وهو في بحر لجى من التفكير والتدبير .
 التفكير في العمل . والتدبير في سبيل المسلك المؤدى الى تحقيق الغاية والمقصد .
 وما هو إلا أن أصيب بجنون ظن انه أسهل وسيلة إلى إدراك الامل . واجتناب
 القهمل . واذاعة الصيت . وكسب الشهرة .

لقد استوقف نظره الجمع الحاشد من حوله . ظالم رجالا يشدون أزرحوله
 وطوله . وطلق يسخرهم حتى حملهم على أن يتقايؤ واقعهم ليرضوه ويستفروا
 كرامتهم ليرفعوه . ويبذلوا حياتهم لينقذوه . وخلق لهم من نفسه صنما
 محبوباً . ومنهم أدوات وجنوداً . يسخرهم في لهوه ولعبه . ويستعين بهم على
 إرضاء حنقه وغضبه . ولكنه تصور مع هذا الخضوع . وتوهم مع هذه الذلة
 والخنوع . انه لا يأمن شر هذا الجند المستضعف إلا أن يغالبهم على غرة
 فيغلبهم . ويصارعهم غلة فيصرعهم . وكاننا به وقد صاح « فلتمت مصر ولا عش
 أنا » وهذه أعماله ناطقة كلها بهذه البدئية

وبينما أغلبية الناس يترفعون مع السكبان بمدح هذا المعبود . ويرتلون
 أناشيد عظمته وعجده واحسانه وبينما انجلترا تطلق دخان سياستها حجباً تسدل
 على الحق . وبينما رجاله يجمعون من شدة الاعياء ترتب على مجاهدته النفس
 في اقامة شمائر الولاء وفروض الطاعة اسعداً . وإذا به يخرج ويده المصباح
 الخافت ليصب الزيت منه على أجساد أمتة وكأنه يباركهم . ولكن لم يمض
 زمن يسير حتى غشى الدخان سماء مصر . وزحجرت عواصف النيران وأكثت

السنتها كل مكان . فنداعت العمى . وانقضت على النفس وتساقطت السقوف .
على الانسان والحيوان . وراح كل شيء طعمة بشعة الهول وتمت الجريمة ولم
يبقى داخل مصر غير الذكرى . ذكرى الاطهار طالبا بالاستقلال واجلاء الاحتلال .
ولقد خط سعد على وجه من قبر مصر العام . « هنا نقيم أمة كانت حية
في سابق الأزمان » وعلى وجه آخر « أبد الامة التي تنق بك تسد وتحكم »
وعلى ثالث « اجعل من أصهارك جلادين . ومن أنصارك سجانين . ومن
معارضيك شهداء » . وترك الزعيم خالبا ليمطر عليه « وهنا دفن جلاد أمة » .
وأما من الخارج فقد انهدم الزخرف وضاعت أسس السيادة . وهى
اليوم أجواق الكهان في يأس وحزن . ترتل أناشيد اللعنة وهى تبكى مصر .
وهام عباد الله يملكون أمر الانتقام الى الله .

ولقد وقف سعد جامداً في مكانه . لا يالج فرارا خلال سنوات انقضت .
بعد اشهار افلاسه الادبى . ولقد وقف هذا الموقف بعد أن أدى مهمته .
وأصبح لايهمه من الحياة شيئاً . لانه أدرك الخلود وقرن اسمه بحريق مصر .
وهل من حريق أشد هولاً من أن يسلم لانيجلترا في الوطن عندما تحدث مع ونجيت
في ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ وعند ما فوض ملنر في سنة ١٩٢٠ . وعند ما رضى بتسريح
٢٨ فبراير نهائياً عقب تحالف الاحزاب في سنة ١٩٢٦ و اعلان سياسة الوفاق التي .
قررت اعتماد تصرفات الحماية باقرار قوانين الحماية وقوانين التضمينات . والتعويضات
والاجتماعات والمظاهرات . ووضع جميع المشروعات القومية في سلة المهملات
وبعث العمل بتلغراف جرنقل عند ما خضع وارضى وهو زعيم الاغلبية أن
يعين عدلى وثروت رئيسين للحكومة بالتناوب . وعند ما أعلن في غير خجل أنه
يريد حكومة زغلولية معنى ولما ودما وروحا . ليهدم التقاليد ويستحق
الكفاءات ويدهور الاخلاق ويربى النفس .اد ويعود للداشئين على الاجترار
على تفويض الجنسية وإقامة الشخصية الذاتية مقامها وما الى ذلك مما يمكن

الاستشهاد به على صحة تدعيم الحماية على يد سعاد مما سيجي تفصيلا ونصاً؟
لم يستطع مصري أن يمتدح سعاداً كي ينتزع منه أسرار بواعثه على
ارتكاب أهله . ثم شراء الناقة وفي رقبتها ذلك الحذاء الملعون يعلى من قدرها
ويسود شملها حتى يجعله عدل ثمن وادى النيل .

ان سعاد لم يكره على الاعتراف وانما اعترف في كبرياء و صلف و عجرفة بأنه اعترف
جنايته ليبقى أمد الدهر ذائع الصيت والشهرة . يدوى ذكره في جميع الأنحاء
ويعاوا اسمه كل الاسماء

وليس لك في سبيل التحقق من ذلك إلا أن تختبر موافقه ونسم « الطقاطيق »
التي برر بها هذه المواقف وترى تسليمه الخزي المريب كقوله امن علامات اذن
الله بالنجاح ان تولينا الوزارة في الوقت الذي تولى فيه حزب العمال مقاليد
الحكم في إنجلترا . وهل عندكم تحريرة دلوني على السبيل . والاستنكار شيء
والتنفيذ شيء آخر . والانجليز خصوم شرفاء معقولون . ولانجلترا في مصر
مصالح لا تتعارض مع الاستقلال الخ . فهل كل ذلك لا يحمل على الاعتقاد بان
الشعب كان دائماً يحاول ارتداء جلد الاسد ليسود ويحكم ويعمل للشهرة والخلود
ما اشتهرت انجلترا بضم وادى النيل على يديه . وخلد التاريخ بقاءها فيه .
أو بمفاوضات تقر الامر الواقع وليس لاخطارها من دافع ؟

غير أن هناك فارقا بين هيروسترات وبين سعاد . هذا الفارق هو أن نواب
الولايات الايونونية قد أصدروا حكمهم على الاثيم . أما سعاد فقد أفلت .
ولكن لاعصمة له من قصاص الله . وقضاء الاجيال المقبلة ولا يمكن أن تكون
قوة إنجلترا سبباً في عذرة فقد كانت سياسة مصطنعة كامل خير قدوة له

على أننا نرى من الواجب أن نبحث فيما إذا كان هناك عامل آخر قد دفعه إلى
هذا التدهور . فإذا وجد وجب أن نتحرى هل هو من الظروف المخففة أم من
الظروف المشددة أم من تلك المانعة من العقاب ؟

لقد كان سعد متشككاً بدافع الوراثة إلى حد بعيد . لأن الممدة يريد دائماً أن يرضى كل فرد أو يظهر بمظهر من إريد إرضاء كل فرد . ثم هو في الوقت ذاته يرمي كل شيء . أو يظهر بمظهر من يرضى كل شيء فيؤول أمره إلى تمود ذلك حتى يصير الأمر مادة يتحول إلى غريزة تنقل بالوراثة ولقد كان وسط العربيين ووسط الأزهر ومدارج رقي سعد كالطمي اكتسب تشكك سعد الوراثي خصصاً ونماء وقوة . فهل كان سعد مسؤولاً عن عمله أم غير مسئول؟ وإذا لم يكن فمن المسئول؟

سعد في نظر أنصاره

يرى المعتدلون من أنصار سعد أنه رجل الذكاء والارادة والفكرة . وأما المتطرفون فاهم لا ينورهم من أن يخلموا عليه القاب النبوة . والربوبية . فهو أما أبو الخبرة أو أبو الاستقلال أو المنقذ . وأما أنه مريء المقعد والمريض . ولقد اشتد هذان الحمى على البعض فجعل يقول « الشرك بالله ولا أنكر بسعد » وإذا نحن أثبتنا أن المعتدلين لم يصيبوا كد الحقيقة أنهار ادعاء المتطرفين . من تلقاء نفسه وبإعبارة أوضح إن سعداً إذا لم يكن زعيماً بالمعنى الصحيح تزول عنه صفة النبوة ويسقط عنه وصف التآليه . لو أن المعتدلين من السعديين لم يجهلوا علم النفس جهلاً تاماً فكيفوا عن الاشارة بذكاء سعد وإرادة سعد وفكرة سعد .

فألك ذكاء إذا تخطى حدوده الطبيعية بموجب قانون الوراثة وحدود الاكتساب بموجب قانون الوسط . جعل شملته تلتهم كل شيء . وافضى بحكم قانون المقاصة بين المواهب إلى اعدام كثير من المواهب أو أدى بحكم المشاهدات والتجارب الطبية الى الارتباك والتردد والتشكك والشقاء وأما من ناحية

الارادة فنشهد بين يدي الله أن ارادة سعد كانت حديدية . ولكنها ارادة لم تستخدم إلا في ميدان السوء . هذا إلى أن الارادة لا تدخل لها في تكوين العقيدة . لأن مهمتها علمياً قاصرة على الاحتفاظ بالعقيدة بعد تكوينها وسحبها ذلك تفصيلاً عند الكلام عن مهمة الارادة . وتكوين العقيدة

وأما أن سعدا كان رجل الفكرة فقول مردود . لأن الفكرة علمياً هي أفراز المخ . ولا يمكن أن يكون التبدل على عكس ذلك بتطبيق نظرية السالك التلقوني . لأن هذا السالك موصل للصوت لا مولد له . فإذا كان المركز العصبي حيث تقيم الفكرة قد تهدم . فلا مناص من انعدام افراز الفكرة . أي أنه إذا مات مخاطبك كيف سلك التلقون عن نقل صوته اليك وكذلك إذا فسد مخ الانسان .

أن المخ غدة تؤدي وظائف عديدة مختلفة . كالكبد والكلى الخ . وافرازات هذه الغدة تختلف كافرازات الغدد الاخرى تبعاً لأنواع الحيوانات واليك برهان نستخلصه مما نسميه الغريزة .

غدة مصفوراً ساعة فقهه . وربه بعيداً عن أي مصفور . ثم مال بعد أن يشب ويكر لتري هذا المصفور يصنع عشه على وتيرة اسلافه المصافير . فمن علمه ذلك ؟ أن الذي علمه ذلك هو بلا شك مخ الذي يفرز الفكرة كما يفرز الكبد حرارته كما يؤدي كل عضو من أعضاء الجسم الانساني وظيفته وفاق قانون الوراثة وهل حلل ليس دليلاً على افراز المخ للفكرة ؟ إن غدة ما يجب أن تقرر بلا انقطاع وأذن فالنوم لا يؤدي إلى توقف هذا الافراز . والغدة التي تقرر كثيراً أو قليلاً أو في غير كفاية هي غدة مريضة . وهل لا يكون المخ مريضاً طبياً عند ما يكون افرازه زائداً عن المألوف أو عند انعدام الافراز فيمتوله عن ذلك الجنون والانجذاب والبله والعتة ؟ لقد كان ذكاء سعد مفرطاً وكان تولد أفكاره زائداً عن الحد الطبيعي فتضاربت وتباينت في غير حساب

لم يمتزج سعد في حياته بأنه مصاب بالبله أو العتة أو الخنوب . ولكنه اعترف رسمياً أنه رجل لا رأى له ولا عقيدة . متردد متشكك تكلفه الوظيفة . وذلك في محضر الجمعية التثريبية الرقم ١٦ بونيه سنة ١٩١٤ حيث قال « أنى كنت قاضياً . وكنت وزيراً . والآن أنا عضو بينكم . وأحس من نفسى أن شعورى كان مختلفاً باختلاف مركزى . وكان لى فى كل مركز شعور خاص ومع ذلك كنت حسن النية فى كل المراكز التى شغلتها كما ينطق بلسانكم الآن بمعاودة الوزير بحسن النية ويقول أنه يعدل بينكم إذا فصل فى أمركم . ولا يجحد عن الحق قيد شعرة . كنت كما قلت لكم فى كل مركز لى رأى . ولكن هذا تأثيراً توسط

« أخوانى ! عملت وأنا وزير عملاً لو عرض على الآن لكنت أول المنتقدين عليه والمعارضين فيه بكل قواى . عملت لظروف بررتها و ذلك الوقت أمام نفسى كما يبرر أخوانى أمثالهم الآن . وكنت حسن النية كما أنهم حسنو النية ولكن لو عرض على مثل هذا الأمر الآن . أراه خطأ جداً وأنا لم له غاية إلا أن أماننا مثل وهو قانون المطبوعات فأنى كنت معارضا أولاً فيه وفى إصداره ثم اشتركت بعد ذلك فى إصداره . ثم ندمت على هذا الاشتراك . ولكنى وقتما اشتركت فى إصداره كنت مقتنعاً بأنى لاحظت ظروفًا يجب على ملاحظتها وشاهدت بعينى تطبيق هذا القانون . واشتركت أيضاً فى تطبيقه . هذا الاشتراك فى مجلس النظائر هو الذى يخيفنى من أحكامه بصفة كونه محكمة » قال سعد هذا القول دون أن يعرباً بالحكمة الخائفة التى القاها مصطفى كامل بقوله « لو انتقل قوادى من الشمال إلى اليمن أو تحولت الأهرام من مكانها المسكين لما تغير لى عبداً ولا تحول لى اعتقاد »

فبعد هذا التصريح قد أفر بأنه كان فى جميع أدوار حياته رجلاً حاراً متردداً متشككاً فى النهاية . فها هو التشكك وما هو أثره ونتائجه ومداه وعلاجه ؟ هذا موضوع الجزء الثانى من « الفأحة » مع تطبيقه على سعد .

تصحیح

صواب	خطأ	سطر	صحيفة
ليندر	ليندر	٣	٤
يميز	تميز	٤	٤
آونة	آوء	٢٠	٥
المداء	المداء	٢١	٥
المهضومين	المهضومين	٦	٧
الغاوين	الغاوين	٢٠	٧
وبحنقون	وبحنقون	١٦	٨
فترة	فترة	١٠	١٠
على القلوب	ع' القلوب	٧	١١
المعارك	لمعارك	١٤	١٤
اذ	اذا	٨	١٥
١٩٣٤	١٩٣٥	١٣	١٦
أو أخطأنا	أو خطأنا	١٥	٢٤
وخداعة	وخداعة	٧	٣٠
بنغ	بنغ	٩	٣٩
جميع	جميع	٢	٣٧
أم قواعد	أو قواعد	٢١	٤٦
أصلب هوداً	أصلب هود	١٨	٤٩
الورائية	الورائية	٤	٦٨
الاشترك	الاشترك	١٩	٧٣

فهرست الجزء الاول

من الناحية

الرقم	الموضوع	الرقم	الموضوع
٥٠	بعد الثورة العراقية	٣	اللاهوت
	هل هناك عناصر أخرى	٥	مناسبة الأعداد
٥٣	غيرت غرائز محمد	١٣	مبدأ الأعداد
٥٣	قبيل نهاية الثورة	١٧	حكمة اليوم
٥٥	بالغة الخطأ	٢٥	قانون الوراثة وأثره في محمد
٥٧	هل كانت هناك ديمقراطية؟	٢٥	تعريف قانون الوراثة
٥٨	في مجلس النواب	٢٦	ممن أنحد محمد؟
٥٩	الموقف العلمي والسياسي	٢٨	كيف نحكم على محمد؟
٦١	الصحافة والمسرح	٣١	النتائج النفسية لقانون التوارث
٦٢	الموقف الفكري ونحو لانه	٣٥	أبناء الثورة الفرنسية
٦٣	الفنون	٣٩	مواهب الملاحظة
٦٣	الانتاج العلمي	٣٩	المواظف
٦٥	ما هو الرأي العام؟	٤١	في الذكاء
٦٦	هل كان محمد رجلاً سياسياً	٤٢	العادات والذاكرة
٦٧	رجال الثورات الفشيلة	٤٢	قانون الألبسة
٧١	تحالف الأحزاب		قانون البيئة وأثره
٧٤	تغلب الطبيعة على الوسط	٤٣	في التوارث الخاص
٧٤	تيمير	٤٥	في الكتاب
٧٩	نيرون	٤٦	في الأزهر
٨٦	ماذا كان محمد؟	٤٧	محمد بعد تخرجه من الأزهر
٩٢	محمد في نظر أنصاره	٤٩	مع المرابين



